سلسلة أعلام الفكر العالمي

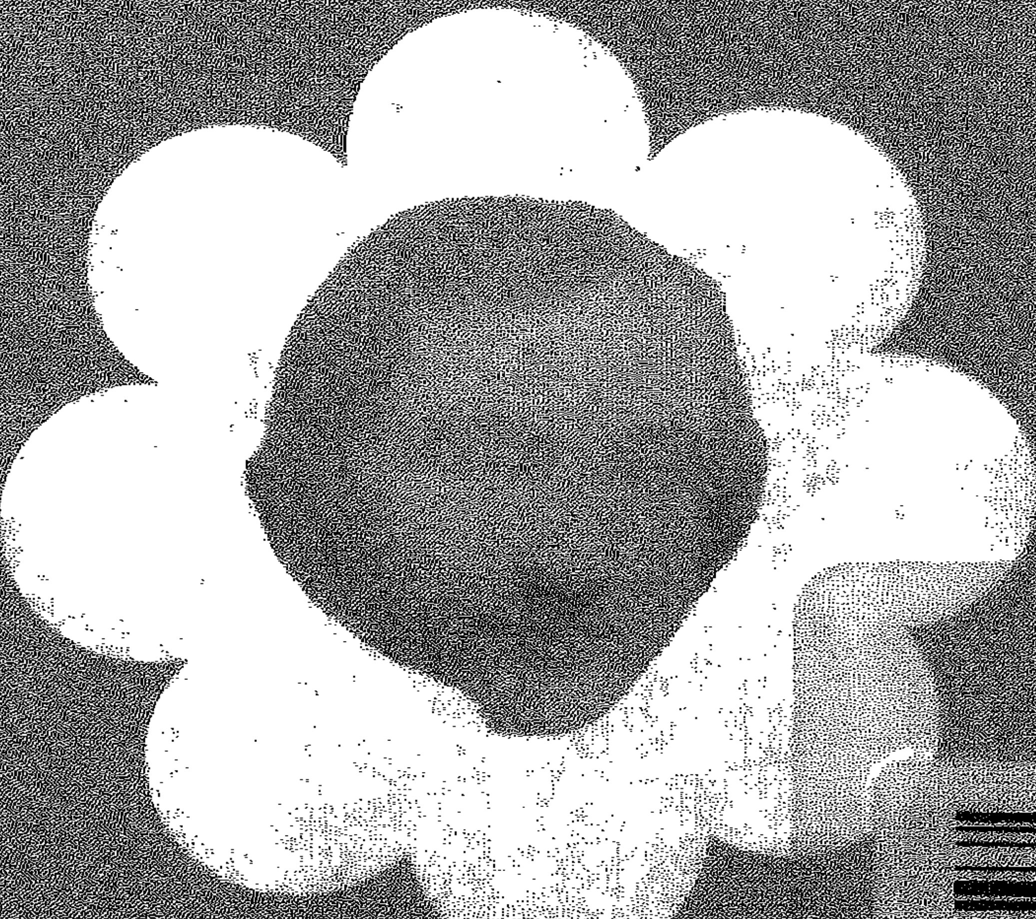

رينان

Bibliotheca Alexandrina
0023934

تأليف: أندريه كريسون
ترجمة: ميشال أبي فاضل

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

رينان

سلسلة اعلام الفكر العالمي

رينان

حياته، آثاره، فلسفته

تأليف : أندريه كريسون
ترجمة : ميشال أبي فاضل

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقياً: موكيالي - بيروت

جميـع الحقوق محفوظـة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعـة الاولى

تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٧

حياتـــه

كثير من الذين اخـذوا من بيئتهم منـذ حداثتهـم المعتقدات العائلية والدينية يستفيقون في عمر معين بنتيجة التجربة التي يكتسبونها من عالم الاشياء والناس ، فيطوّر كثير منهم أفكارهم آنذاك ، ولكنهم وان كفوا عن الاعتقـاد بالاساطير ، وبأنواع الجن الخيّرة والشريرة فهم لا يذهبون أبعد من ذلك ، ولا يغيرون محور حياتهم . لكن بعضهـم لا يتوقفون عند هذا الحد ، بل يذهب بهم الامر الى التخلي عن العادات التي كانت تتفق ومعتقداتهم فيثيرون بجراتهم هذه استنكار بيئتهم فيتهمون في اغلب الاحيان بانهم سعوا لتحقيق عكس ما كانوا ينشدون .

وينطبق هذا الوضع على ارنست رينان . فالبشرية برأيه متعلقة بالدين ، ومن الوبال الا تكون كذلك ، لانـه يشعر بأن تعلقه بالدين يلف كل كيانه . لكنه يعتبر في نظر اولئـك الذين يحوّلون الديـن الى قيـام ببعض الشعائر

البسيطة ، والممارسات السطحية ، صاحب فكر شيطاني ، في حين ان ما يعتبره رينان الامر الاساسي الوحيد هو ما يدعوه « المثال الاعلى » و « الالهي » .

ولد أرنست رينان في « تريفيه » من اعمال شمالي فرنسا في ٢٨ شباط سنة ١٨٢٣ . وتوفي في باريس في ٢ تشرين الاول سنة ١٨٩٢ . كان والده قبطانا للرحلات البعيدة ، قضى نحبه سنة ١٨٢٨ حين عاد ذلك المركب الذي كان يقوده بدونه الى الشاطىء ، وقد صرّح رفاقه يومئذ بأنهم يجهلون ما حل بقبطانهم . واثر ذلك وجدت جثته مطروحة على الشاطىء بالقرب من بلدة « أركيه » . أحادث هو أم انتحار ، هذا ما لا نعرفه . ولم تمض فترة وجيزة على ترمل والدة رينان « اللانيونية » الاصل حتى لجأت الى منزل شقيقها في « لانيون » حيث أقامت مع اولادها .

وكان لأرنست أخ واخت . ولد اخوه «الان » في « تريفيه » في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٠٩ ، وتوفي في « نويي » في ٩ آذار سنة ١٨٨٣ . بعد ان أمضى معظم حياته في « سان ـ مالو » حيث تزوج وعمل في التجارة ، وقد ظل لعدة سنوات مسؤولا عن القضايا المادية في العائلة . أما أخته « هنرييت » ، التي ولدت في « تريفيه » في ٢٢ تموز سنة ١٨١١ ، فقد لعبت دورا هاما في حياته . لقد أحبته حبا حنونا شبيها بحب الام ، وكانت امرأة متوقدة

الذكاء ، مستقيمة الطبع ، كان عمرها ١٢ سنة حين ظهر ارنست الى الوجود ، فساهمت كأخت بكر في تربيته الاولى، وكانت في سن السابعة عشرة يوم توفي والدها ، فتولت آنذاك أمر العناية بأخيها أرنست . وما لبثت ان تدهورت احوال العائلة المادية تدهورا سيئا للغاية بعد موت معيلها نتيجة الديون والفقر . ولدى عودة السيدة رينان وأولادها الى تريغيه وجدت العائلة نفسها مضطرة لاتخاذ بعض القرارات . فسافر الآن في عمر التاسعة عشرة الى باريس ، ومنها عاد الى سان ــ مالو حيث عرضت عليه وظيفة لا بأس بها واهتمت هنرييت التي حلمت لبعض الوقت بحياة الرهبنة ، بمساعدة أهلها بتفان ، فاختارت التدريس في تريغيه ، لكنها لم تر في تلك المهنة ما كانت تتوخاه من رضى، فانتهزت الفرصة للسفر الى باريس وعملت هناك لبعض الوقت مدرّسة مساعدة في مؤسسة وضيعة ، ثم أصبحت مديرة لمدرسة داخلية أرقى . وكان لها بعض المعارف بين بريتانيي باريس فقدّر لها ان تهتم بأخيها أرنست وبمستقبله ، وكان قد عهد بتربيته الى القيمين على المدرسة الكهنوتية في تريغيه التي كان يديرها آباء طيبون ومتقشفون لم يكتب عنهم رينان الا بعاطفة صادقة . وظهر رينان في تلك المدرسة متفوقا بذكائه وسلوكه وورعه . فكان طليعة صفه ونال سنة ١٨٣٨ العدد الاكبر من الجوائز . وكانت تلك فترة هامة أثرت بلا ريب على مجرى حياته . ففي ذلك الوقت بالذات كان المونسنيور ديبانلو على رأس اكليريكية

سان نيقولا دي شاردونيه الصغيرة . وكان يبحث عن اشخاص لامعين معدين برأيه لتدريب الآخرين ، وعلى الارجح معدّين للكهنوت . وقد لفت أحد اصدقاء هنرييت نظر المونسنيور الى وضع الفتى ارنست . فأصبح أرنست سنة ۱۸۳۸ ، صاحب منحة في هذه الاكليريكية الصغيرةالتي حدثنا بذاته عن حسناتها وسيئاتها : دروس ممتازة ، ادبية صرف ، لا تداخلها اية ثقافة علمية ، وتشجيع للمنافسة وتدريب حي . كل ذلك من اجل تنشئة فئة مميزة متعلقة بالديانة الكاثوليكية عن طريق ممارسة شعائر معينة ، ونظام معين ، لا عن طريق التفكير الفلسفي والايمان العميق . وما علينا بهذا الصدد سوى العودة الى **ذكريات الحداثة والشباب** و**رسائل الاكليريكية** لنرى الفتى البريتاني الكتوم والانعزالي ، الذي ترعرع في جو ورع ، يكاد يدهش من الدين السطحي والدنيوي الذي رأى الناس يمارسونه من حوله .

اما وضع هنرييت رينان فقد بقي سيئا رغم تحسنه ونجاحها في تأمين مستقبل ارنست المباشر ، وكانت امه يومذاك على وشك الالتحاق بألان في سان ـ مالو ، وكانت هنرييت مصممة على تسديد الديون التي تركها والدها فارتضت لنفسها وضعا مربحا يخامره التخوف وانكماش الصدر ، فاهتمت بتنشئة أولاد الكونت البولوني أ . زاموسكي تنشئة خاصة . وكان يقيم هذا الكونت عادة في

قصر كليمنصو في بولونيا ، ولكنه كان يسكن اغلب الاحيان في فرصوفيا ، وقد تنقل في تلك الفترة المضطربة مرارا عديدة بين المانيا وايطاليا بوجه خاص ، وكانت هنرييت تواكبه حيث ما حلّ مع أولاده . فقد التزمت بخدمته عشر سنوات وكانت عند وعدها ، من سنة ١٨٤١ حتى سنة ١٨٥٠ . فكانت الفرقة فرصة مؤاتية فريدة تبادل خلالها ارنست وهنرييت رسائل كثيرة كان الحديث فيها حديث القلب للقلب . وما **الرسائل الخاصة** ، **والرسائل الخاصة الجديدة** ، الى جانب رسائل المدرسة الاكليريكية التي أرسلها رينان الى امه ، ورسائله الى أخيه ، سوى وثائق بالغة الاهمية عن تلك الفترة من حياته .

لقد حرر رينان أولى رسائله الاكليريكية في سان نيقولا دي شاردونيه ، وكانت تنم في الوقت نفسه عن تعلقه بأمه واغترابه كشاب بريتاني اقتلع من أرضه وزج فجأة في جو لم يكن يتوقعه ، بعيدا كل البعد عن تلك البيئة الخاصة القاسية والورعة التي درجت عليها بيئته ، كما تظهر تلك الرسائل أيضا مطامحه الصغيرة كطالب نشيط ، ومرارته حين تكون رتبته دون الوسط ، وفوزه الباهر حين كان يتلقى تهاني المونسنيور ديبانلو . وشعر في تلك الفترة بالعزلة والانقباض والتوق الى الحرية . وفي النهاية ألم به المرض . وفي سنة ١٨٤١ انتقل الى مدرسة « ايسي» الاكليريكية ، وهناك تبدلت انطباعاته ، فالمنطقة جبلية

زاهية ، والجو أقل وطأة ، وبالرغم من عـدم استعـداده المستمر لعقد صداقات فقد حظي برفاق لطفاء وراقتـه كذلك معظم الدروس التي تلقنها . ولم يكن الادب للادب من دواعي الفخر في « ايسي » ، فقد تعلم هناك الرياضيات ، والعلوم الطبيعية ، ومبادىء اللغة الالمانية ، واستهوتـه دراسة الفلسفة فشعر وهو يدرسها انه قد وجد ضالته ، فبدأ يفهم حجج الغير ويقابلها بحججه ، ويتعلـم النقـد والتفكير . وقد تعلم أيضا ان الكتابة بلا هدف سخافة من أعظم السخافات ، فنجح ونجح بتفوق حتى انه عرضت عليه في نهاية سنته الثانية في اكليريكية « أيسي » (سنـة ١٨٤٣) جائزة الشرف المخصصة للمتفوقين ، وهي عبارة عن اذن يتيح له القيام ، دونما انتظار ، بحفلة « قص الشعر على الطريقة الاكليريكية » . وكانت تلك الحفلة اولى مراحل تردده للانخراط في سلك الكهنوت . ولم تكن تعد تلك الحفلة التزاما نهائيا ، الا ان القبول بها يعني التزاما تجاه الذات وتجاه الله . بعدها عرف ارنست الكثير مما كان يجهله ، فقد تبين له ان بامكانه سلوك حياة هادئة تخصص بكاملها للدرس والبحث عن الحقيقة ، دون ان يدخل سلك الكهنوت ويومها كان لا يزال ايمانـه كليـا لا يشوبه سوى بعض الاضطراب .

وانتقل رينان سنة ١٨٤٣ من اكليريكية « ايسي » الى اكليريكية « سان ـ سولبيس » حيث أصبح في بيئة رفيعة

الاخلاق لكنها قاسية البرد ، اطلع فيها على دروس جديدة . فدرس اللاهوت وتعلم العقائد الكاثوليكية ، والبراهين التقليدية التي تستند اليها الكنيسة ، واطلع على الاعتراضات التي توجه ضد تلك البراهين ، والاجابات التقليدية عليها ، وهي اجابات بدت له هزيلة وفي أغلب الاحيان تافهة جدا ، الا انه راى ان الاجابات الدقيقة جدا تكون ضرورية احيانا لدعم رأي معين . ولكن ما عسانا نقول عن نظرية لا يمكنها ان تقوم الا على ضروب وضروب من الاجوبة التافهة الجوفاء ؟ وتعلم رينان العبرية أيام رئاسة السيد لوهير فكان يتردد في الكوليج دو فرانس على حضور محاضرات المستشرق كاترمير في اللغة العبرية ، وبدأ يدرس اللغة العربية في عهد رئاسة السيد راينو ، فصقل كل ذلك حسه النقدي ، وفتح أمامه آفاقا رحبة ، وبدأت الشكوك تنتابه شيئا فشيئا . وفرض عليه أن يقبل منذ سنته الاولى في « سان ــ سولبيس » حفلة « قص الشعر » تلك التي لم يكن بوسعه تجنبها دون ان يكره على ترك المدرسة الاكليريكية ، الا ان هذه الحفلة لم تكن لتلزمه بأي شيء نهائي . أما وقد قرب موعد اتخاذ القرار فقد تعين عليه ان يقبل سنة ١٨٤٥ الدرجة الكهنوتية الاولى ، أي درجة الشماس الرسائلي ، او ان يترك مدرسته . اجل لقد شعر بوطأة الاختيار ، فهو أكثر من ذي قبل ، لا يستطيع التسليم بما يؤمن به الكهنة والاكليريكيون من حوله ، ففتح قلبه لاخته هنريت التي حثته بكل ما ملكت من حجة على الا

يأخذ جانب الالتزام النهائي الذي يربطه بسلك الكهنوت ، وكان يخشى في ذلك ان يغيظ امه ، فأكدت له هنرييت ان هذه الاساءة لن تكون كبيرة بقدر ما يتصور ، وكان يخشى ان يزيد من تعقيد وضعه المالي الذي كان ما يزال متدهورا فساعدته هنرييت من هذه الناحية على عبور الساعات العصيبة . وخشي أن يجد نفسه فجأة في خضم حياة معقدة يجهل عنها الكثير ، لكن هنرييت ، بالرغم من ابتعادها عنه ، كانت تهتم بكل ما يحتاج اليه من ملبس ، ومأكل ، ومشرب ، فشجعته على دخول معهد المعلمين العالي ، واذا احجم عن ذلك ، ان يسعى لنيل لقب جامعي . وفي النهاية هناك حقيقة فرضت نفسها هي ان رينان شعر بالحاجة الى التخلي عن سلك الكهنوت ، لا لاعتبارات جنسية ، او ميتافيزيقية ، بل لاسباب حددت بأنها فقهية لغوية بحتة . وقد عبر عن ذلك في رسالة الى شقيقته . فهو لم يستطع ان يخفي عن نفسه تناقض النصوص التي تظهر وكأنها مقدسة ، وخطأ تأويلها التقليدي ، والطابع الشكاك لتلك الحقائق المزعومة . فذلك ما قضى على ايمانه . فكتب يقول : « اليك بكلمة واحدة حجتي النهائية وهي : انني لا أؤمن ايمانا كافيا » . لكن هذا لا يعني انه اخذ جانب التمرد على المسيحية ، الا اسمعه يقول : « سأحب المسيحية ، وسأعجب بها على الدوام ، فهي التي غذت طفولتي وأزهتها ، وهي التي جعلت مني ما انا عليه ، ومناقبها (واعني بذلك الانجيل) سوف تبقى دوما قاعدة لسلوكي . .

ويسوع يبقى ، وسيبقى على الدوام الهي » .

ولكن كم هو صعب على امرىء القيام بحركة تحرر !
ازاء هذا الوضع ، كان يشعر رينان بخجل متزايد ، فهو شديد العرفان بما فعلت الاكليريكية من اجله ، وبالحب الذي أحاطه به رؤساؤه . فقد نجح بالرغم من كل ذلك في التغلب على ذاته . ولم يكن تبدل رأيه ، كما صرح الى اخته ، سوى « تبدل في الرأي حول نقطة تاريخية مهمة ، وهو تغير لا يحول دون العيش على الاسس السابقة ذاتها » . « لقد اتخذت قراري هذا في الايام الاخيرة من شهر ايلول ، فكان ذلك عملا مشرّفا جدا ، وفرحي وارتياحي اليوم هو في التفكير بذلك القرار » .

ونهار ٦ تشرين الاول سنة ١٨٤٥ ، هبط رينان للمرة الاخيرة درجات سلم دير « سان ـ سولبيس » ، ولجأ ، اول الامر ، الى فندق يتردد عليه الكهنة وتقوم بادارته آنسة اسمها سيلاست .

وعلى ضوء التوجيه الذي قام به معلموه الذين ساعدوه ، كانت امامه وظيفتان .

فقد وجد وظيفة ، اول الامر ، في معهد ستانيسلاس الذي كان يشرف على ادارته يومئذ السيد غراتري ، فدخل ذلك المعهد كمدير للدروس . ولكنه سرعان ما وجد نفسه انه اختار طريقا ليست طريقه ، فقد طلب اليه بالفعل ،

اثناء خدمته الداخلية ، ان يلبس الثوب الكهنوتي ، وان يمارس شعائر العبادة ، وهي الشعائر التي اراد التخلي عنها . وبالرغم من حسنات تلك الوظيفة فانه لم يبق فيها سوى خمسة عشر يوما ، ترك ستانيسلاس على أثرهـا ليدخل مدرسة كروزيه الداخلية .

وتسلم رينان في هذه المدرسة ايضا مهام مدير للدروس ، فقدم له فيها المأكل والمسكن ، وكان يعطي دروسا خاصة لبعض الطلاب المتأخرين . فكانت مكانته على شيء من الضعة ، الا ان الادارة لم تكن تشك أبدا باستقامته ، فقد أتيح له ان يتردد على الكوليج دي فرانس ، والسوربون . واعطي غرفة لا تدفئة فعلية فيها . الا انه عرف كيف ينتفع بها ، وعرف كيف ينظم العديد من ساعات فراغه ليستفيد من المكتبات . وحالفه الحظ في عقد صداقة مع بارتولو الذي كان يومذاك من كبار الطلاب في مدرسة كروزيه . ولما لم تكن نفسه تضج بالرغبات ، لجهله رفاه العيش ، ونظرا لروحه المتصوفة فقد شرع يعمل بجهد متواصل ، وهو يحدثنا عن طبيعة عمله ، ومراحله ، واعماله الناجحة في الرسائل التي تبادلها مع شقيقته هنرييت .

ومن أجل غد مشرق قام رينان بعدة مهام أساسية في آن واحد ، وتمكن برغم بعض المصاعب الادارية ، من النجاح في شهادة البكالوريا في الآداب . وبعد ذلك مباشرة حضر اجازته الجامعية ، وهي عبارة عن امتحان صعب وهام في

تلك الايام . وقد زفّ بشرى نجاحه الى اخته في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٨٤٦ ، وجاء ترتيبه الرابع ، وكان الاولان الاثنان طالبين من معهد المعلمين ، وكان الثالث الاب فواون . وقد اعتبر نجاحه مرضيا كما اعتبر انه اسيء اختيار المواضيع المطروحة . وفي تلك الاثناء توطدت علاقته ببعض الشخصيات الجامعية مثل : غارنيه ، وداميرون ، وايجر ، وباتين ، وغينيو ، وفيكتور لوكلارك ، وكان بوسعه ان يطلب عملا في احدى مدارس القاطعات ، وان يحصل عليه ، لكنه صرف النظر من ذلك الميل .

وكان رينان يومذاك عظيم الانشغال بعمل يتطلب اقامته في باريس ، فالمعهد « يقدم سنويا جائزة ، أسسها فولني ، لافضل بحث لغوي يعرض على المعهد لتقييمه » . وتساءل رينان عما اذا كان البحث الذي حضره في الاكليريكية وشجعه عليه لوهير ورعاه ، وهو بحث يدور حول « اللغة العبرية » ، لا يستطيع ، اذا ما سدت ثغراته ، ان يلبي تلك الرغبة الملحة . وطلب رينان ذلك البحث من السيد جوليان الذي أرسله الى بيرنوف . وكان الجواب بالقبول . وكان رينان بالطبع على علاقة بالسيد راينو ، استاذ العبرية في المكتبة الملكية ، فتابع محاضراته ، واستفاد من ارشاداته ، وقام بزيارة مثمرة له سنة ١٨٤٧ . وقد لفت راينو نظر رينان الى ان كرسي اللغة العبرية ، الذي يشغله المستشرق كاترمير في الكوليج دي فرانس ، سيصبح شاغرا في فترة قريبة . فأهاب كل ذلك برينان وشجعه . وفي آذار سنة

١٨٤٧ وضع رينـان « أولى بواكيره » وهو : **بحث تاريخي ونظري حول اللغات السامية عامة ، واللغة العبرية خاصة.** وقد أزعجه تنافس البعض ، ومن بينهم السيد ليبون ، الا انه في النهاية منح جائزة فولني ، لذلك رأيناه ينكب علـى الدراسات التي تعني باللغات الشرقية ، فعرفه كل البحاثة المتبحرين في هذا المضمار .

ولم تكن تلك سوى الانطلاقة الاولى . فقد بدأ يحلم في آن معا بشهادة اختصاص في الفلسفة ، وباشتراك ثان في مسابقة المعهد المذكور ، وبوضع اطروحة لنيل شهـادة الدكتوراه . ولم يكن بوسع المرء ان يتقدم الى امتحـان شهادة استاذ في الاختصاص دون الحصول على شهـادة بكالوريا في العلوم ، فتقـدم الى هذه الشهـادة الاخـيرة ونالها في ١٢ تشرين الاول ، سنة ١٨٤٧ ، سنة ١٨٤٨ جاء ترتيبه الاول في شهادة استاذ في الفلسفة . وقد زفّ بشرى نجاحه الرائع في رسالة الى شقيقته في ٤ ايلول سنة ١٨٤٩ . ولم يكن هذا كل شيء ، ولا أيضا جلّ ما يسعى اليه . فقد نظمت أكاديمية الآداب مسابقة كانت عبارة من بحث يدور حول دراسة اللغة اليونانية في الغرب ، من القرن الخامس حتى القرن الرابع عشر . فاهتم رينان بهذا الموضوع لدرجة انه كان يحلم بانتقاء بحث من هذا النوع موضوع اطروحـة للدكتوراه . لذلك نقب في المكتبات وتحدث عن مشاغله الى كل أصحابه فساعدوه في جمع الوثائق ، وفي سنة ١٨٤٨

تكلل بحثه بالنجاح ، فنشر في السنة نفسها ، في المجلة الفلسفية ، اول تحرير لما اصبح فيما بعد **رسالة في اصل اللغة** . فذاعت شهرته وعقد مع بارتولو صداقة فريدة في متانتها وثمارها . واستقبله فيكتور كوزان ، الذي كان في أوج مجده يومذاك ، ورحب به أجمل ترحيب . ولو انه رغب في التعليم لكان أعطي كرسيا للتدريس في المقاطعات ، لكن الدراسات التي استهوته كانت تحتجزه في باريس ، فحلّ يومئذ محل بعض الاساتذة في التدريس ، ومن بينهم بارسو الذي شغل يومذاك منصب استاذ في فرساي ، وكان مرشحا للانتخابات سنة ١٨٤٨ . ولم يكن مبتغاه يومئذ سوى سد حاجته لا التطلع الى التعليم في مدرسة ثانوية . فسعى لنيل مركز ثابت براتب محترم في مكتبة عامة ، الا ان ذلك كان امرا صعب المنال سنة ١٨٤٨ .

وفي تلك الاثناء كانت باريس في أوج ثورتها فتأثر فكر رينان تأثرا عميقا بتلك الثورة ، فكانت أحداثها نقطة بارزة سنشير اليها لدى التحدث عن فلسفته . ولم تكن الرسائل التي كتبها رينان الى اخته هنرييت عن تلك الاحداث التي شهدها وثائق قيمة فقط ، بل اظهرت لنا اهتماماته الاخلاقية وأحكامه السياسية الاولى . وتمثل تلك الفترة أيضا المرحلة التي بدأ فيها التفكير بكتابة **مستقبل العلم** ، وهو كتاب فلسفي جدير بالاهتمام ، لم ينشره الا بعد ان ادرك الخامسة والستين من عمره .

وكانت سنة ١٨٤٩ الفترة التي لعب فيها دارامبار دورا بارزا في حياته . فقد احتلت بعض الفيالق الفرنسية مدينة روما ، ورأى دارامبار ان بالامكان القيام ببعثة الى ايطاليا ، بعثة مخصصة للبحث عن مكتبات الاديرة التي كانت لا تزال مقفلة كليا حتى ذلك التاريخ ، فقام باجراء المقتضى ، وحصل لرينان ولنفسه على اذن للقيام ببعثة بيبليوغرافية هامة . وقد جال رينان مع أعضاء تلك البعثة في بلاد غالية الرومانية التي سحره جمالها ، ثم في روما ، ونابولي ، وفلورنسا ، واسيز ، ورافانا ، والبندقية ، وفيرونا ، فكانت له تلك الرحلات بمثابة اكتشافات قيمة للماضي والحاضر . وتعبر رسائله في آن معا عما انطوت عليه نفسه من تدين عميق وجد نظيرا له لدى رهبان جبل كاسان ، وعن اعجابه بالايمان الساذج والمؤثر الذي وجده لدى أهالي روما ، كما انها تعبر عن ذلك الازدراء الذي شعر به حين رأى الدين في نابولي وقد تحوّل الى نوع من التجارة ظنّ البعض انهم بواسطته يستدرون الآيات العجائبية من الله ، والسيدة العذراء ، ومن القديسين بشكل أساسي مستندين في ذلك الى الطقوس الخرافية ، والشعارات التافهة التي يعتبرها صنمية منفّرة وأمرا لا يجوز السكوت عنه .

وقد انهت البعثة أعمالها سنة ١٨٥٠ ، فعاد رينان الى باريس ، ولكنه عاد الى السفر من جديد ، فذهب الى برلين يبحث عن اخته هنرييت التي أصيبت بمرض في

الحنجرة فعاد بها الى فرنسا ، وعاش الاثنان معا لمدة سنوات .

ولدى عودته الى باريس ، رأى رينان ، وكان قد أصبح معروفا وعلى حدود الشهرة ، ان وضعه قد استقر ، وان مستقبله وضيع ، الا انه مستقبل مشرق . فعاد سنة ١٨٥٠ الى المكتبة الوطنية العامة ، وانكب على التحرير في مجلة العالمين Revue des Deux-Mondes وصحيفة المناقشات Journal des Débats . وحدث في تلك الفترة ان وقع انقلاب الثاني من كانون الاول . وتكشف لنا رسالة منه الى أخيه الان بتاريخ ١٧ كانون الاول سنة ١٨٥١ ، وهي رسالة لم يوقعها من قبيل التحفظ ، مشاعر رينان عن تلك المناسبة . فقد أدان فيها اغتصاب السلطة الذي حدث ، ادانة صارمة ، وحذّر أخاه من أكاذيب الجرائد الرسمية وتصريحاتها ، فكتب له يقول : « تظن غالبية الناس هنا انه ليس بامكان الانسان النبيل ان يمد يد الدعم الاخلاقي لما أصبح قائما ، وان الاشخاص الذين لا يشعرون بالشجاعة في قول كلمة لا ، يجب ان يتمنعوا عن الادلاء بأصواتهم ، أو الاقتراع بورقة بيضاء » .

لكن الاحوال هدات وبقي رينان في وظيفته يتابع أعماله . وفي سنة ١٨٥٢ حصل على لقب دكتور في الآداب عن اطروحة متعمقة جدا : **ابن رشد والرشدية** ، وكان عمره آنئذ ٢٩ سنة ، وكانت أخته هنرييت تعيش معه ، وكانا

يسكنان معا « في نهاية حديقة قرب محلة فال دي غراس » ، وكان الانسجام على أتمه بينهما : اتفاق في الآراء ، وانسجام في الاخلاق ، وشعور بجمال الطبيعة والفن ، واحساس ديني عميق . وكانت هنرييت بالنسبة لاخيها « سكرتيرة لا مثيل لها » فهي تشير الى الهفوات في اسلوبه وتجبره على العناية بكل ما يكتب لا سيما وانها اسهمت منذ زمن بعيد في تحرير صحيفة تربوية تعنى بقضايا الفتيات .

وانقضت على هذا المنوال ست سنوات من الحياة المشتركة ، وسعت هنرييت الى عقد قران اخيها على فتاة اختارتها له ، ولكن هذا المسعى لم يكلل بالنجاح . وفي سنة ١٨٥٦ التقى رينان بالآنسة كورنيلي شيفر ، حفيدة الرسام آري شيفر ، فتبادلا الحب وطلب رينان يدها . وبانت على هنرييت مظاهر الغيرة فكان لها مع رينان لقاءات مؤسفة هددت خلالها بالخروج من البيت والعيش لوحدها . وأصيب رينان بدهشة الم لهذه العاطفة المنجرفة حتى انه كان على وشك التخلي عن مشروعه ، لكن هنرييت عادت الى رشدها فأقامت صداقة مع كورنيلي ، وعادت الامور الى مجاريها . واشاد رينان في رسائله الى اخيه الان بروح المصالحة التي تجلت لدى هاتين المرأتين العظيمتين وقد تكللت بصداقة عميقة وحميمة وطدتها مع الايام ولادتان متلاصقتان : ولادة آري رينان الذي اعتنت به هنرييت كما اعتنت ودللت اخاها من قبل ، وولادة ابنة صغيرة لم تلبث

للاسف ان توفيت . ولم تر ابنة رينان الثانية النور الا بعد عدة سنوات .

وفي سنة ١٨٥٦ رشح رينان نفسه لدخول اكاديمية الآداب ، وقد شغر يومها مقعدان ، فكان اول منافسيه السيد رينيه ، وقد مدح رينان لاخيه مدى استقامته وصداقته . لكن البعض تحاملوا ضده ودعموا ترشيح السيد دوليل ، وسعوا الى تدبير مقلب لابعاده . لكن هذا المسعى لم يكتب له النجاح ، لان انتخاب رينان انتهى بطرح قضية مبدئية ، فدعمه اصدقاؤه وانتخب في الدورة الاولى، وهو امر انفرجت له أسارير هنرييت وكورنيلي . وقد دعم هذا الانتخاب بالفعل ، كما يقول في رسالة الى أخيه، مركزه الادبي ، ومنحه « نوعا من الحصانة الادبية » . وكان لهذا الانتخاب أثره اذ **كلتف رينان سنة ١٨٦٠ القيام ببعثة اثرية في فينيقيا القديمة** . فاصطحب معه امرأته واخته هنرييت، وقام بجولة مهمة في سوريا وفلسطين . ورجعت السيدة رينان الى فرنسا في شهر تموز سنة ١٨٦١ ، وبقي رينان لوحده مع أخته هنرييت التي سرعان ما انتابتها الآلام . وكان قد حرّر بمعونتها المسودة الاولى لكتاب دعاه فيما بعد **حياة يسوع** . وكان يشرف في الوقت نفسه ، وبالرغم من حرارة الطقس ، على التنقيبات الحديثة ورفع ما استخرج من بين الانقاض . وفي تلك الاثناء أصيب في عمشيت ، هو واخته هنرييت ، بحمى خبيثة .. افقدت الاثنين وعيهما . فعولج هو في الوقت الملائم ، وابلّ من

مرضه ليعرف بوفاة أخته وقد انطفأ سراج حياتها في ٢٤ أيلول سنة ١٨٦١ ، وهي بجانبه دون أن يعي لحظات نزاعها الاخيرة ، فكان ألمه بالغا ، ولذلك كان الكتيب الذي يحمل عنوان أختي **هنرييت** مفعما بالاسى .

وقد عاد رينان الى فرنسا بعد ان ابتلي بمرضه الاليم وبوفاة اخته هنرييت « تلك المراة التي كان لها ، على حد قوله ، أعظم الاثر على حياتي » . واستأنف مشاغله السابقة . وفي سنة ١٨٦٢ نال لقب استاذ العبرية واللغات الشرقية والسامية في الكوليج دي فرانس . وفي ٢١ شباط سنة ١٨٦٢ قام بالقاء درسه الافتتاحي الذي تخللته بعض نظرات لم تكن في موضعها : ألم يتحدث يومئذ عن يسوع وكأنه « رجل لا مثيل له » ؟ ولم يكن يحتاج المقرر المكلف بتدريسه الى اكثر من ذلك ليعلق بقرار وزاري . ولم يتمكن رينان من العودة لاعطائه الا في سنة ١٨٧٠ ، بعد اعلان الجمهورية .

وفي سنة ١٨٦٣ قام رينان برحلة ثانية الى الشرق ليستكمل بعض الوثائق . ولدى عودته نشر كتابه **حياة يسوع** ، ذلك الكتاب الذي كان له دوي في العالم . ولعل هذا الكتاب كان اعظم من ذلك لو ان رينان عرف كيف يستغله . فقد كتب يقول : « لو انني أردت القيام بحملة ضد الاكليروس بعد نشر كتاب حياة يسوع ، ترى الى أي مدى كانت شعبيتي ! الجماهير تحب الاسلوب الجذاب ،

فكم كان سهلا علي الا احذف تلك الالفاظ الرنانة ، وتلك الزخارف التي تنجح لدى الآخرين وتثير حماس البسطاء ، وهم غالبية الناس . لقد امضيت سنة في التخفيف من الاسلوب الرنان في حياة يسوع ظنا مني ان موضوعا كهذا لا يمكن ان يعالج الا برزانة وبساطة متناهيتين ! » وعلى هذا الشكل حددت شهرة هذا الكتاب الخالد الخط الفكري لما تبقى من حياة رينان ، وهو الخط الذي جر عليه غضب كل الكنائس المسيحية بشكل متواصل ، وهو غضب غالبا ما كان لاذعا ، وقد امتنع رينان دائما من الرد عليه . وهذا ما منحه احيانا التأييد والدعم السري من قبل العديد من احرار الفكر . وبالطبع كان رينان يحب ان يميز قسما من اولئك المعجبين بأدبه ، واكثر ما كان يفرحه هو انه ارضى اولئك الذين انفصلوا عن الكنيسة نتيجة افكارهم الدينية العميقة ، اما ان يكون قد اصبح معبود الملحدين السخفاء فتلك كانت غصة لنفس كنفسه . ولو أن رينان رغب في المديح لتلقى مدائح العديد من زناديق « المقاهي التجارية » .

ومهما يكن من امر بعد هذا التاريخ المشهود ، فان حياة رينان كانت حياة كاتب مجد عرف ما يريد وما هو في حدود قدرته ، وعرف في الظروف العسيرة ما يتوجب عليه .

وكان رينان يخصص جل وقته تقريبا لتحرير تلك

السلسلة من المجلدات التي كان يحلم بها عندما كان في الثانية والعشرين من عمره ، وقد شكل مجموعها سلسلة **أصول المسيحية** ، وقد كتب تلك المؤلفات تباعا ما بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٨١ ، على الوجه التالي : **حياة يسوع** ، **أعمال الرسل** ، **القديس بولس** ، **المسيح الدّجال** ، **الاناجيل والجيل الثاني من المسيحيين** ، **تاريخ الكنيسة المسيحية** ، **مارك أوريل ونهاية العالم القديم** . وعندما اكتملت السلسلة باشر رينان كتابة **تاريخ بني اسرائيل** في خمس مجلدات ، كان عليه ان ينشر أوائلها ، كما يقول ، ولكنه عجّلها مخافة أن يموت قبل انهاء كتابة تلك « المرحلة الجنينية من تاريخ المسيحية » ، وهي مرحلة كان يعلق عليها أعظم الاهمية . ولم ينته من طباعة آخر مجلد من **تاريخ بني اسرائيل** الا في تشرين الاول سنة ١٨٩١ ، أي قبل موته بسنة .

لكن كتابة تلك المؤلفات الهامة لم يكن ليأخذ كل نشاطه .

فقد فكر بعض الاحيان باتخاذ موقف سياسي معين يكون لصالح البلاد ، ولذلك رأيناه يقدّم ترشيحه سنة ١٨٦٩ للانتخابات عن دائرة سين ـ أي ـ مارن ، ويكتب المقالات ، ويدلي بتصريحات رصينة ، الا ان الفوز لم يكن حليفه .

وفي سنة ١٨٧٠ ، وقد صدمته وحشية العقيدة

الجرمانية وقباحتها ، ونظرا للتهجم الذي تعرض له من قبل السيد شتراوس ، الذي وجه له رسالة مفتوحة على صفحات جريدة **فازيت دوغسبورغ** ، قام رينان بتحرير ونشر الرسائل الانتقامية التي سيجد القارىء مضمونها الجوهري في لمحتنا الفلسفية عنه . ولم يكن هذا كل شيء، ففي تلك المرحلة العسيرة التي كانت تأمل فيها فرنسا سنة ١٨٧٠ ان تستعيد توازنها الاجتماعي والسياسي ، نشر رينان تلك الصفحات القيّمة التي جمعت الى جانب بعض المقالات السابقة ، ورسائل الرد على شتراوس لتظهر في كتاب حمل عنوان **الاصلاح الفكري والاخلاقي في فرنسا** ، وهو كتاب يعبر عن جوهر فلسفته السياسية التي سنلخصها في لمحتنا الفلسفية عنه .

ويضاف الى هذه المؤلفات مجموعة من الاعمال المتراكمة . فقد قام بكتابة مقررات دراسية في الكوليج دي فرانس ، ومحاضرات عديدة ، ومقالات للمجلات، **ولجريدة المناقشات** Le journal des Débats[8] ، **ولجريدة العلماء** Le journal des savants . وتراس بعض الولائم ، والقى بعض الكلمات فيها ، والف تلك **المناقشات والدرامات الفلسفية** التي نشرها ككتابات مبسطة أعطته شعبية اكثر من مؤلفاته التاريخية المتبحرة جدا ، ولم يتردد في ان يقص لنا بنفسه تاريخ طفولته ، وفقده لمعتقدات حداثته ، ونشوء تلك المعتقدات التي حلت محلها . وقد صاغ كل ذلك بموهبة

عجيبة ، وبصفاء فرنسي محض ، وببساطة ظاهرة يخالطها الفرح والسخرية حينا ، وقوة التعبير والانفعال الحاد احيانا اخرى . ونراه ايضا لا يهجر دنيا الناس والشهرة ، لانه أصبح احد أهم الشخصيات ، واحد اصحاب النفوذ المرموقين في الجمهورية الثالثة .

لقد اقبل المجد على رينان ، فهل سعى هو اليه ؟ وهل عرف كيف ان يكون ماهرا الى جانب تحليه بالتواضع ؟ الم يسهم اعداؤه في شهرته بقدر ما اسهمت مواهبه وقوة تفكيره ؟ الواقع ، ان رينان يصرح بأنه كانت تخالجه رغبتان: الكوليج دي فرانس ، والاكاديمية . اجل لقد تحققت هاتان الرغبتان ، فأصبح عضوا في أكاديمية الآداب منذ سنة ١٨٥٦ كما رأينا سابقا ، وعضوا ، سنة ١٨٧٩ ، في الاكاديمية الفرنسية التي خلف فيها كلود برنار ، واستاذا في الكوليج دي فرانس منذ سنة ١٨٦٢ ، ومن ثم مجردا من وظائفه حتى سنة ١٨٧٠ ، ثم مديرا اداريا لهذه المؤسسة الشهيرة سنة ١٨٨٤ .

وفي تلك المؤسسة قيض لكثير من الناس أن يشاهدوه . فقد كانت شهرته عظيمة جدا ، بحيث ان العديد من المسافرين ، الذين مروا بباريس ، كانوا يدخلون احيانا لبعض الوقت لسماع محاضراته ، ليس حبا بوجهات نظره الصوفية في فقه اللغة ، بل ليكونوا صورة عن حركته، وسلوكه ، وصوته .

وكانت تلازمه قبل سنوات حالة صحية متدهورة ، فقد تملكته عوارض الروماتيسم الحاد التي كان يعالجها بتغيير اماكن اقامته . فكان يقيم تارة في ايشيا التي كان يلائمه مناخها ، وطورا في ذلك البيت في روسما بامون ، كان ينشطه هواء طفولته في مقاطعة بريتانيا ، وحيث كان ينتشي بذكريات أيامه الماضية ، وبمراجعة أفكاره الفلسفية باستمرار . اما وقفته وجسمه المترهل ، وشكله المشوه ، ووجهه الذي تطل منه البساطة السمحاء والسخرية اللاذعة ، فقد بقيت جميعها راسخة في ذهن اولئك الذين كانوا يشاهدونه . ويجد المرء ذلك كله حين يشاهد تلك اللوحة الحية التي اخذها له الرسام بونا .

وحين أصبح مقعدا قيض له ان يقيّم حياته وينتظر نهاية عمره . لقد قيّم حياته بتفاؤل عجيب ، فلو قدّر له ان يعيشها من جديد لعاشها كما منحت له . لقد كتب يقول : « ايها الآب السماوي ، اني اشكرك على هذه الحياة ، لقد كانت جميلة وقيمة ، وكنت محاطا فيها بكائنات رائعة . لم تدعني اشك يوما بقدرتك . لم أكن بلا خطيئة ، فقد كانت لي نقائص الناس جميعا ، ولكن مهما قال اولئك الذين يدعون انفسهم كهنتك ، فاني لم ارتكب كبيرة من الكبائر . لقد احببت الحقيقة ، وضحيت من اجلها ، وتمنيت لقاء وجهك الكريم ، واني أؤمن باليوم الآخر . ويوم انهارت معتقداتي القديمة ، فبدل ان ابكي ، او ان انتفض ضد قدرتك ، عقدت العزم على ان اعتصم بحبل

الصبر ازاء حظي السيء ، فالبكاء جبن ، والانتفاضة ضد وجهك الكريم سخافة ما بعدها سخافة » .

اما موته ، فقد انتظره دونما انزعاج ، واخبرنا عنه . فقد كانت تخطر له بين حين وآخر الفكرة المتفائلة ، او المتشائمة ، تبعا للتأويل الذي كان يريد اعطاءه لها . اما « وجود جهنم » فتلك فكرة لم تكن لتعكر مزاجه ابدا ، فقد كان يعرف انه اذا كان كل انسان ، على ما هو عليه من خير او شر ، فالمسؤول هو ذلك الذي وضع في داخله تلك البزور التي تفتحت فيما بعد . وهو يتهكم قائلا : « اما بالنسبة لي فاني أتصور انه اذا كان الله الازلي بقساوته قد ارسلني ، بادىء الامر ، الى ذلك المكان اللعين ، فقد انجح في التخلص منه عن طريق ارسال استرحام الى خالقي يجعله يبتسم ، وستكون الحجج ، التي أوردها له لابرهن انني استحققت الدينونة بسبب خطئه ، شديدة الدقة بحيث يصعب عليه أن يرد عليها » .

وأخشى ما كان يخشاه رينان هو الجبن ساعة النزاع . فقد احتاط لهذا الاحتمال بقوله : « ربما أكون حزينا حين أعبر احدى فترات الضعف هذه ، لان الانسان الذي تسلح بالقوة والفضيلة لا يكون في تلك الفترة سوى ظل لنفسه وأنقاض لها . وغالبا ما يهتم المرء في خضم فرح البلهاء بتدمير حياة بناها بكل ما أوتي من جهد . ان شيخوخة كهذه هي أسوأ عطاء يمكن أن تقدمه الآلهة

للانسان ، ولو كان هذا مصيري لاحتجيت سلفا على ضعف يمكن ان يجرني اليه عقل سخيف . فرينان السليم العقل والقلب ، كما أنا اليوم ، ليس رينان الذي يكون الموت قد هدّ نصف طاقته ، ولا هو نفسه كما لو كنت انحل ببطء ، واني اود ان يصدّق رينـان ، وان يسمـع . انني ارفض كلمات التجديف التي قد يجبرني خور الساعة الاخيرة على التلفظ بها ضد الكائن الازلي » .

وكان من حظ رينان ان ينجو من هذا الخطر . فقد توفي بسلام في ٢ تشرين الاول سنة ١٨٩٢ محاطا بما تبقى من أهله وذويه . وقد وضع اسمه ، وهو شرف غير منتظر بالنسبة لذلك الرجل المسالم ، على مؤخرة سفينة مدرّعة :. ورفض النواب التصديق على قـانون بنقـل جثمانـه الى البانتايون ، في وقت نقلت فيه رفات جول ميشليه ، وادكار كينيه ... الا ان تمثاله ما يزال يزين الساحة الرئيسية في تريفيه . فهو وان كان يرقد بعيدا عن بلدته ، فان ذكراه ترفرف فوق تلك الارض البريتانية التي ولد فيهـا واحبها حبا جما .

فلسفته

١ ـ اولا

يقول رينان : « لا تقوم براعة الكاتب في ان تكـون لديه فلسفة فحسب ، بل في ان يخفي تلك الفلسفة . وعلى الجمهور ان يرى الانهار التي تخرج من الجنة دون ان يرى الينابيع التي تتفجر منها تلك الانهار ، وان يسمع الصوت دون ان يرى الآلة التي تحدثه » .

ولعل في هذا الكلام تلميحا لما سنراه في سياق هـذا البحث . ان ما يعطي لعمل رينان معناه وحجمه هو في رأيه تلك الفلسفة التي تكمن وراءه . فعلى ذلك يستحق مكانة مرموقة في رحاب « مجمع الفلاسفة » .

فما هي فلسفته اذاً ؟

لم يعرض رينان فلسفته في اي من كتبه بشكـل عقائدي ، حتى أنه لم يحاول تقديم البراهين عليها ، لكنه

تكلم عنها كثيرا ، وبكثير من الوضوح ، بحيث لم يتبقّ بعد ذلك مجال للكشف عن خطوطها الرئيسية .

انا نجد تلك الفلسفة متشابهة تقريبا في كل كتاباته ، الا انها مختصرة بوضوح مميز عما عليه في أي كتاب آخر ، في **رسالته الى بارتولو** سنة ١٨٦٣ ، وفي مناقشاته الفلسفية سنة ١٨٧١ ، وأخيرا في كتابه **مستقبل العلم** ، الذي كتبه سنة ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩ ، وهو يمثل « نظريته بلحمها وعظمها » ، وقد أراد نشره فورا ككتابه **حديث في المنهجية** ، لكنه احتفظ به بين أوراقه لمدة اربعين سنة ، وانتهى بدفعه الى المطبعة في السن الخامسة والستين ، وصدّره بمقدمة ممتعة . فرينان الناضج يتكلم عن تلك الفلسفة بتسامح ساخر ومنفعل في هذا الكتاب الذي وضعه وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ويشير فيه الى نزقه الصبياني ، وتفاؤله الساذج المضحك ، واستعداده البريء في المبالغة بتقدير دور الانسانية في الكون ، لكن أفكاره بقيت بوجه عام هي ذاتها . « فأفكاره سنة ١٨٤٨ » هي ذاتها افكاره سنة ١٨٨٨ (٥)

ونحن اذا تصفحنا عن كثب تلك النصوص المختلفة ، وقابلناها بالعديد من المقاطع التي تكثر في كتاباته الاخرى ، ماذا ترانا نجد ؟ اننا نجد مجموعتين من المقولات تتعلق أولاهما بما سنطلق عليه فلسفة رينان النظرية ، وثانيتهما فلسفته العملية ، أي نظرته الى الاخلاق والسياسة .

٢ ـ ثانيـا

في بداية الامر ، ماذا تتضمن فلسفة رينان النظرية ؟ انها تتضمن :

١ ـ مجموعة مقالات تتعلق بالعلم : بهدفه « وبالطرائق التي تناسبه »

٢ ـ مجموعة مقالات تتعلق بالدين : بماهيته ، وبما يجب ان يكون عليه ،

٣ ـ مجموعة مقالات تبدو لاول وهلة وكأنها واهيـة الصلة بالمقولات السابقة ، وهي في جميع الاحوال

توشي بطريقة خاصة بعض النواحي الايجابيـة والسلبية التي قد تبدو على جانب من اليقينية المتطرفة .

أ) نجد بادىء الامر ان لرينان تصورا خاصا مـن فكرة العلم ، وعن الهدف الذي يقترحه له ، وعما يتوخى له ان يكون .

ورينان مؤرخ بطبعه وبذوقه ، وبكلام أدق انه « فقيه لغوي » ، فهو يقول : « لقد ثبت السيد لوهير منطلقي في الحياة . فقد كنت بطبعي فقيها لغويا » . ومن التاريخ « وفقه اللغـة توصـل رينان الى التفكـير الفلسفي ، وعلى

الفلسفة ان تمتد الى كل شيء لان « الفيلسوف صاحب فكر فضولي » . وهو « مفكر مهما يكن موضوع فكره » . فكيف نعجب اذن اذا ما فهم العلم المثالي بطبيعته كمؤرخ ، على شاكلة التاريخ ، علما بأنه يحتمل ان يكون لكل شيء تاريخ . والعلم المثالي لم ترس أسسه بعد ، ويجدر بنا ارساؤها ؟ ثم كيف نتجاهل قوة الحجج التي يورد رينان اهميتها هنا ؟

ملام يقع بصر الناس ؟ من ينكر ما يراه ؟ هناك مستقبل شاسع كبير ينبسط امامنا . ربما كان بمقدورنا تصور كائن ثابت لا يتغير ، الا انه ليس لدينا أدنى تجربة عن كائن كهذا . فما تظهره لنا التجربة هو ان هذا الكون « وتلك الذات ، هما في حالة تغير ودوران ازلي . والوقت أهم عامل في كل شيء . ونحن لا نرى لدى الاجناس ، والنجوم ، والعوامل ، وحيث ما نحلّ ، سوى حالات من التطور والتحول . ولكن ما عساه يكون علم ما يتحول على هذا الوجه بطريقة ثابتة ومستمرة ؟ ان رينان لا يتردد في الاجابة على ذلك . فهو يقدم اجابة شكلية في كتابه **مستقبل العلم** ، ويكرر تلك الاجابة كل ما سنحت له الفرصة . « ان التاريخ هو الشكل الضروري للعلم ، ولكل ما هو خاضع للصيرورة » . تلك نتيجة تفرضها اولى مراحل التفكير .

ولننطلق مما هو مألوف لدينا اكثر من سواه ، اي من الانسانية ، فما هو المطلوب منا لكي نفهمها ؟ المطلوب هو

ان نعرف ، بادىء الامر ، ما دوّنه التاريخ الصحيح عنها ، منذ أقدم عهود التاريخ التي لدينا وثائق حقيقية منها حتى اللحظات التي نحن فيها . لكن هذا ليس سوى فصل من فصول العلم التي يجدر بنا كتابتها ، ويتعين علينا لانجازه، أن نركز اهتمامنا على مرحلة ما قبل التاريخ ، التي تكشف لنا سر نشأة البشرية بالذات . ولنفترض ان هذه القضية الثانية قد حلت ، فاننا لن نصل الى أقصى ما نتمناه . فماذا يعني التاريخ البشري فعلا ، ان هو الا فصل من تاريخ متناهي الابعاد تنبغي كتابته ، ثم ماذا يعني أيضا تاريخ الانواع البشرية والنباتية ؟ ان هذا الاخير يتطلب منا بدوره معرفة بالتاريخ الجيولوجي لكرتنا . ولكن ما ان نحاول وضع قواعد هذا التاريخ حتى نرى أنفسنا مجبرين للتعرض لقضية أخرى ، هي تاريخ العالم الشمسي ، هذا التاريخ الذي لا ينفصل عن تاريخ علم الفلك . وكيف لنا ان نهتم بعالم الفلك دون ان نتطرق لمشكلة تضيع فيها كل المشاكل الاخرى ، هي مشكلة تاريخ تلك العناصر الاولى بالذات ، من ذرات وجزئيات يبدو ان الكون مركب منها ، ويتعين علينا ان نقص تاريخ تكوينها دقيقة دقيقة ، وثانية ثانية ؟

علام يدلنا هذا ؟ انه يدلنا بان العلم لن يكون بالطبع علما الا بشرط واحد وهو : ان ينجح في وضع تاريخ عام لكل شيء ، وهو تاريخ يدعونا التفكير على ان نتصوره قائما .

واذا ما انتهينا من وضعه فانه سيتضمن تاريخ حقب سبع :

١ ـ **الحقبة الذرية** : وهي على الاقل حقبة مفترضة تمثل فترة سيطرة الميكانيك الصرف الذي يحمل بزور الاشياء التي ستأتي فيما بعد .

٢ ـ **الحقبة الجزيئية** : وفيها بدات الكيمياء ، وراحت المادة تتخذ شكل تجمعات مميزة .

٣ ـ **الحقبة الشمسية** : التي تجمعت فيها المادة في الفضاء على شكل كتل عظيمة تفصل ما بينها انواع هائلة .

٤ ـ **الحقبة الكوكبية** : التي انفصلت فيها كل مجموعة منظمة من تلك الكواكب المتجمعة حول كتلة مركزية ، عن اجسام متميزة لها تطورها الخاص ، وبدأ فيها كوكبالارض خاصة بالتكون .

٥ ـ **حقبة النمو الفردي لكل كوكب** : وهي حقبة مرت الارض خلالها بتطورات متعاقبة يدل عليها علم الجيولوجية ، وقد ظهرت فيها الحياة ، وبدات النباتات ، والحيوانات ، والفيزيولوجية تحقق أهدافها .

٦ ـ **الحقبة البشرية اللاوعية** : التي ظهرت لنا بفضل فقه اللغة ، والميتولوجية المقارنة ، وهي تمتد من اليوم

الذي بدأت فيه الكائنات على الارض تستأهل اسم بشر إحتى العصور التاريخية .

٧ ـ **الحقبة التاريخية** : « التي بدات بالبزوغ في مصر ، وتشمل تقريبا ستة آلاف سنة ، منها ثلاثة آلاف فقط ، ذات أثر ، وثلاث او اربع مئة سنة فقط ذات وعي كامل في كل كوكب ولدى البشرية جمعاء » .

هذا هو العلم الذي علينا ايجاده . فقد يكون بالطبع ، كما نرى ، تاريخا معينا يتناول مجموع عناصر الكون بأكملها ، فيروي لنا ما حدث لكل عنصر من تلك العناصر منذ اللحظة الاولى ، كما لو كان هناك من يلاحظ ، حتى وقتنا الحاضر . وتلك لوحة هائلة على الفكر ان يتصورها ، وستظل بأكملها ، على وجه التقريب ، بحاجة الى تركيب ، مع ان بعضا من أجزائها بوشر به والبعض الآخر في طريقه الى التنفيذ .

ففي مثل هذه اللوحة يجب ان نعمل ، كما يقول رينان ، لان تكاملها هو الشيء الوحيد المهم . وسنرى فيما بعد سبب ذلك . ورينان يلفت نظرنا الى السبب فيقول : ان الهدف الذي ينبغي على المفكر ان يسعى وراءه هو عدم تكرار ما كتبه بصورة مستمرة ، وان يدفع بموهبته الى اقصى حدودها . والفنان وحده يستطيع هذا الامر ، لا بل عليه إن يفكر فيه لانه يخشى إن يدوم عمله بشكله اكثر من ان يدوم بمحتواه . فعلى المفكر الا يهدف الا الى

أمر واحد هو ان يقدم لبنته الصغيرة في ذلك البناء الذي تشيده البشرية ، وان يكون احد بنائي تلك الكاتدرائية العظيمة التي هي العلم ، والتي ستصبح التاريخ النهائي والمتكامل لكل شيء .

ولكن كيف نوجه جهدنا اذن للحصول على النتيجة المتوخاة ؟ هذه هي قضية الطريقة التي يجدر بنا ان نستخدمها للوصول الى اهدافنا .

لا يجيب رينان على هذا السؤال اجابة مفكر عقلاني محض فحسب ، بل اجابة عقلاني هزته ممارسته الشخصية لعلم التاريخ ، ومعرفته بفروع شتى العلوم التي تكونت حتى ذلك الوقت .

وعلينا ان نأمن قبل كل شيء جانب تلك الاولويات مهما تكن . ويظهر رينان قاسيا على ديكارت وطريقته التي يدّعي انه بواسطتها استنتج القوانين الاكثر عمومية في حركة التفكير حول صفات الله . وهو لا يبدو أقل قساوة على محاولات وضع البراهين الاولية التي أفسدت الميتافيزيقيا عند سبينوزا ومن قلده من الفلاسفة الالمان . فقد كتب يقول : « لقد فقدت باكرا كل ثقة بتلك الميتافيزيقيا المجردة التي تدعي انها علم خارج سائر العلوم ، وانها هي وحدها التي تحل اصعب مشاكل الانسانية » .

وبالطبع ان بمقدور بعض العلوم ، لا بل من واجبها ، ان تقوم بتفكير محض دون اللجوء الى التجربة . وذلك ينطبق على الرياضيات الصرفة ، وعلى المنطق الشكلي أيضا . اما اذا قيض لهذه العلوم ان تتقدم بفضل تلك الطريقة ، فذلك لانها بدأت بتصنيف نفسها خارج الواقع ، فهي تخلق مواضيعها من كل الاجزاء ، وتحددها في عالم التجريد الصرف ، وتطرح بديهياتها ومسلماتها وكأنها اتفاقيات اساسية . وتكتفي بالتالي بموضوع للبرهنة متشابه دائما . وما ان نسلم بالتحديدات الاولى ، والاتفاقيات الموضوعة ، حتى نرى أنفسنا مجبرين ، تحت طائلة التناقض الذاتي ، بان نسلم بصحة هذه النتائج او تلك . ولا شيء أفضل ، او آمن ، من ذلك بالطبع سوى المقولات التي نصوغها ، والتي تعود الى المبادىء التي نكون قد وضعناها . أما اذا كانت طريقة كتلك الطرائق ، وحقيقة كتلك الحقائق ممكنتين ، فذلك لاننا بدأنا نضع أنفسنا في عالم اصطناعي بكل معنى الكلمة .

لكن هذا الكون ، الذي يجدر بالعلم لكي يكون كاملا ان يكتب تاريخه بشكل كامل ، هو كون مختلف تماما ، وهو بجوهره حقيقة طبيعية وملموسة . فلن نتوصل اذن بانطلاقنا من الطريقة الرياضية التقريبية الى ادراك كنهه . وعلينا الا نعتمد في ذلك الا على الملاحظة والتجريب وكل أساليب التوثيق التاريخي .

ويجدر بنا أيضا ، اذا أردنا النجاح ، ان نكون مقتنعين كليا بالامر التالي : لم يتولد شيء في العالم ، ولن يتولد ، الا في ظل أسباب طبيعية وطبقا لقوانين ثابتة ، وبتعبير آخر لم تحدث عجائب في الماضي ولن تحدث اليوم أيضا .

ولنعرف كيف نفهم هذه المقولة . فلا نخلطن اذن بين ما قد يكون عجائبيا ، وما يبقى سريا (١) . فالسري هو ما لم يشرح بعد حتى الساعة . والعجائبي هو ما قد يتولد خلافا لقوانين الطبيعة المعروفة والمؤكدة . يقول رينان : « ان العجيبة ليست شيئا غير مشروع ، انها خرق شكلي باسم ارادة خاصة للقوانين المعروفة » . وهذا التحديد ضروري جدا لان عدد الظواهر التي لا تزال سرية في هذا العالم هو عدد هائل ، ولم تحدث بالمقابل في اي مكان على الاطلاق تدخلات لارادات خاصة أتت من عالم غيبي ، غير محسوس ، خلافا للقوانين الثابتة التي تخضع لها الطبيعة.

ورينان يجعلنا نلاحظ ذلك . فهو يقول : « اننا لا نرفض العجيبة بتفكير قبلي ، بل بتفكير نقدي ، أو تاريخي » . ويضيف قائلا : « ان قضية ما هو فوق الطبيعة تطرحها من قاموسنا بثقة كلية تلك الحجة الوحيدة القائلة بأن ليس هناك مجال للاعتقاد بشيء لم يقدم لنا العالم

(١) أي ما يعود الى اسرار الديانة ، كسر الثالوث الاقدس عند المسيحيين مثلا .   (المترجم)

بعد أي اثر تجريبي عنه . اننا لا نؤمن بالعجيبة والاشباح ، والشيطان ، والسحر ، والتنجيم . فهل نحن بحاجة لان نرفض تدريجيا تحليلات المنجم الطويلة ، ولان ننكر تأثير النجوم على الاحداث البشرية ؟ كلا . يكفينا من هذه التجربة السلبية تماما ، والمعبرة أيضا ، ان أفضل حجة مباشرة على ذلك هي اننا لم نلاحظ ابدا أي اثر لتلك النجوم » .

ويؤكد رينان قائلا : « ان اعجوبة واحدة في باريس ، امام علماء مختصين ، تضع حدا للكثير من الشكوك ! الا ان ذلك للاسف ، لم يحدث اطلاقا . فلم تحدث أية عجيبة ابدا امام الجمهور الذي ينبغي ارجاعه الى الايمان ، أعني بذلك امام المشككين . فشرط العجيبة هو سذاجة الشاهد عليها » .

واذا اردنا أن نسير سيرا حثيثا بالعمل الذي ينبغي القيام به ، لتوجب علينا دراسة ما يحدث كمجموعة من الوقائع الطبيعية المرتبطة في ما بينها ، كما ترتبط النتائج بالاسباب ، وتخضع كليا للقوانين . وينبغي الا نزين لانفسنا ان بعض النصوص والتقاليد متميزة عن سواها ، وهي فوق كل نقد ، بحجة ان أصلها قد يكون غير طبيعي . ولنكرر ما قلناه بأن الملاحظة ، والتجريب ، والنقد الذكي المتبصر والصادق لكل الوثائق التي نجدها ، هي الوسائل الوحيدة الموجودة بحوزتنا .

اما اذا تناولنا الفصول لهذا التاريخ الواسع ، الذي أذا ما كتب قد يكوّن العلم بكليته ، نلاحظ انه يتشعب الى

قسمين كبيرين ، اولهما يمكننا أن ندعوه تاريخ الطبيعة ، ويمكننا تسمية الآخر تاريخ البشرية . فما يتناول الذرات ، والجزيئات ، والنجوم ، والنظام الشمسي ، وتكوين الارض ، وتطور النباتات والحيوانات ، يتناول دراسة الطبيعة بكل معنى الكلمة . وما يتناول ظهور الانسان والعمران على الارض ، والمجتمعات البدائية ، وتطور الحضارات الكبرى التي تسيطر اليوم على كرتنا الارضية يتناول دراسة البشرية بالمعنى الصحيح .

ولكن رينان ، وهو ليس باختصاصي في علوم الطبيعة ، يترك لعلماء الفلك ، والفيزياء ، والكيمياء والبيولوجيا ، قضية العناية باستخدام الملاحظة والتجريب على الوجه المرغوب في الابحاث التي يعنون بها . الا انه كاختصاصي في العلوم الانسانية ، وهي العلوم التي يعنى بها بشكل خاص ، يشدد تشديدا قويا على الاجراءات التي تتفق مع تلك العلوم .

وعلينا الا ننتظر شيئا من تلك الرؤى البعيدة ، وتلك العموميات الفضفاضة ، وتلك اللمحات القصيرة المدى ، التي يشير اليها باسم فلسفات التاريخ ، فهي الاعيب فكرية تمتاز بطابع أدبي ، وشعري ، ولا ترتكز على اساس ، وعلينا ان نحترس منها احتراسا شديدا .

وينظر رينان نظرة ساخرة الى مفهوم علم الاجتماع على طريقة اوغيست كونت . ومن غريب الادعاء التفكير

بوضع علم قيّم عن طريق مقارنة تواريخ لم تكتب بعد !

فما نحن بحاجة اليه اليوم هو أمر آخر ، انه وضع دراسات فردية فائقة الاتقان ، تكون شديدة الدقة ، ومتماسكة كليا في جميع نقاطها التي يفترض ان تكون قابلة للدرس ، الا اننا لم نظفر بهذه الدراسات حتى الآن ، فرينان يود ان يكون « لكل بلاطة » دراسة خاصة بها .

ولهذا فهو يمدح لنا الدراسات المتواضعة والمضنية التي لا تجلب لاصحابها المجد والثروة ، ولكنها تقدم لعلماء التاريخ ، واضعي هندسة الغد ، الادوات الصلبة تماما التي هم بحاجة اليها . فعالم اللغة هو في هذا المجال اعظم قدرا من سواه .

وبالفعل ليس هناك قضية علمية تقدم للتاريخ فائدة شبيهة بمعرفة اصول البشرية . ولكن كيف لنا آن نحل قضية كهذه ؟ يجيب رينان على ذلك بأن ما تقدمه لنا الوثائق حول هذه النقطة ، ليس سوى مجموعة من الاعمال البارعة التي علينا القيام بها كليا ، أو جزئيا . وكذلك الالمام بدراسة نابهة لكل آثار الماضي ، ولا نقصد بذلك دراسة الاشياء المادية التي قامت فحسب ، بل دراسة كل ما ابتدعته البشرية البدائية ، خاصة بطريقة غريزية لا واعية ، من ميتولوجيات ، وأديان ، وآداب فولكلورية ، وفنون بدائية غير كاملة ، وبشكل خاص أيضا ، تلك اللغات التي تقدم لنا الوثيقة المثلى عن مهارات وقدرات التحليل ،

والطرائق المنطقية لدى مفكري الماضي ، فتلك هي المنجّم الذي علينا ان نهتدي بهديه .

ويصر رينان على القول بأن المؤرخ لا يجد افضل وثائقه في تحف عصور العلم ، والفن ، والادب ، والحضارة الاخلاقية والسياسية العظيمة ، لكنه يجد ضالته في الاشكال البدائية الاولية . فليتسلح الباحث اذن بشجاعة فائقة ، وليجهد نفسه في قراءة نابهة لاردأ الكتب وأسخفها وأتفهها . وليقبل بتمضية أيامه في تلك المهمات ، وعليه ان يتجاهل من أجل ذلك العديد من الاشياء التي لا تحصى ، والمسلية جدا والتي قد تكون أقل دلالة بكثير ! ففهرسة مخطوطات محفوظة في مكتبة معينة ، وترجمة نصوص مجهولة من مخطوطات مكتوبة بالعربية او بالسريانية ، ودراسة لغة محكية في ناحية من نواحي الارض عن طريق الاستعانة بجماعة متوحشة بائسة ، والقيام بعمليات تقميش ، كتلك التي كان يقوم بها الرهبان البندكتيون ، والتي جعلت شهرتهم في ذلك مضرب المثل ، ان القيام بكل ذلك مضرب المثل ، ان القيام بكل ذلك بعناية فائقة ، بالرغم من اننا لا نجد لدينا سوى خمسة أو ستة قراء ، وأحيانا ولا قارىء ، فذلك بالطبع عمل مضن ، ولكنه لوحده عمل مثمر . فبهذه الوسيلة ، وبها وحدها ، تتم لنا معرفة البشرية ، وفهمها بطريقة اقل سوءا .

فليس أتفه اذن من الهزء بالمعرفة المتضلعة والمتضلعين ،

وليس ما يدعو للشفقة سوى اتهامهم باضاعة وقتهم في تلك الترهات . وعلى العكس ، يجدر بالدولة ان تعني بتسهيل مهمتهم ، فتغني المكتبات ، وتنظم دور المحفوظات ، وتمد يد المعونة لأعمال ليس لها قراء ، ولايجاد وظائف فخرية لاولئك الذين يكرسون حياتهم لمهمة جاحدة يتوقف عليها بالفعل أهم ما هناك من علوم . وكثيرا ما تخلى رينان من جهته عن المجد والثروة ، وكل المكاسب الاجتماعية . اما لتنفيذ عمل قيم فينبغي بالطبع ان يكون للباحث ما كاد يفوت رينان كليا ، عندما خرج من الدير ، من خبز لا يسمن ولا يغني من جوع ، ومن نار في مدخنته تحول دون تجمد أصابعه وحبره ، وذلك دون ذكر الكتب الضرورية ، والمعاجم ، والكتب الاساسية لمعرفة بعض اللغات ، والوسائل العديدة التي يصبح الباحث في حال عدم توفرها، عاجزا من العمل .

ورينان يعلن ذلك بلا وجل ، فهو بالطبع لم يجد أفكاره الفلسفية النيرة لدى ديكارت ومدرسته ، بل وجدها في روائع من نوع آخر . وجدها في بعض الكتب المشهورة ، كالمجلدات الاخيرة من **تاريخ الادب الفرنسي** ، وفي **بحث عن الدين البوذي** لـ « اوجين بيرنوف » ، وفي **علم الآثار الهندية** لـ « لسن » ، وفي كتاب **القواعد المقارنة** لـ « بوب » ، وفي **أديان العصور القديمة** لـ « غينيو » . فمن هذه المراجع استلهم رينان مؤلفاته ، وهي مراجع غير جديرة في نظر الجاهل بالقراءة ، مثلها مثل فهارس المخطوطات ،

والتقميشات الضخمة ، والمكتبات العامة كمكتبة فبريسيوس . وهو يصرّح قائلا : « اود أن أرى عشرة آلاف مجلد من الفلسفة تحترق ، اذا كانت من نوعية دراسات **لاروميغيير** ، او **منطق بور رويال** ، وافضل ان اسعى لتخليص مكتبة السمعاني الشرقية ، أو مكتبة الغزيري العربية الاسبانية » . والى هذا يضيف قائلا : « اشعر بأني استفدت في تكوين افكاري العامة عن الاشياء من دراسة العبرية ، والسنسكريتية بقدر ما استفدت من قراءة افلاطون ، وسفر أيوب ، او الانجيل ، ورؤيا يوحنا ، او معلقة بهغافات جيتا ، او القرآن ، أكثر مما استفدت من قراءة ليبنز ، وهيغل ، وغوته ، ولامرتين . من هنا ذلك التحديد الذي يفرض نفسه ، فقد حلم رينان ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، بذلك المؤلف الضخم الذي سيدعوه **أصول المسيحية** ، والذي سيصبح بنظره أعظم رائعة في القرن التاسع عشر ، وقد عزم على ان يحذف منه كل تأثير ادبي ، وكان تصميمه الاولي ذا متانة علمية بحت ، فخصص الجزء الاول منه لذكر كل الوثائق التي يمكن استعمالها في تلك المادة ، وهي الوثائق التي عزم على قراءتها ، وخصص الجزء الثاني لدراسة نقدية دقيقة لتلك الادوات المختلفة ولحقيقتها الكلية ، او الجزئية ، وتاريخها ، ودرجة تصديقها ، والمدلول الدقيق لكل عبارة فيها . وقد كتب يقول : « اما اذا باشرت هذا العمل الضخم فسأبدأ بوضع فهرس صحيح عن المصادر ، أي عن كل ما كتب في

الشرق ، منذ سبي اليهود الى بابل حتى فترة تكوّن المسيحية بشكلها النهائي ، دون ان أنسى الاستعانة الهامة جدا بالآثار والحجارة المنقوشة ، وما اليها . ثم أعود فأفرد مجلدا خاصا لنقد تلك المصادر ، وأتناول قسما بعد آخر من مقتطفات النبي دانيال التي كتبت ايام المكابيين ، وسفر الحكمة ، وشروح النصوص الكلدانية ، ووصية البطاركة الاثني عشر ، وكتب العهد الجديد ، والمشنه (١) والاناجيل المختلفة . وسأسعى لان أحدد ، على ضوء نقد دقيق ، الفترة الصحيحة ، والمكان ، والبيئة الفكرية التي الفت فيها تلك المؤلفات . وحين يتم لي ذلك سأستند على تلك المعطيات لوحدها في تكوين أفكاري عن طريق عمل تجريدي كامل يتناول كل التخيلات التي علقت في الاذهان بالاستنتاج والاستناد الى مقارنات غامضة » .

وليس هناك طريقة أخرى ممكنة اذا اردنا التوصل الى أمر علمي وحقيقي صرف . وتلك الطريقة تحمل اسما معينا ، فهي تدعى الطريقة النقدية ، وتفترض وجود عادات عقلية وفكرية مميزة ، فتلك العادات التي امتدحها المذهب العقلاني المتكامل يستشهد بها رينان على طريقته . « لم تخلق الحقيقة للانسان المهووس ، بل اختصت بها العقول

---

(١) المشنه هو أحد أجزاء كتاب التلمود المقدس لدى اليهود ، وهو يتضمن قرارات قانونية وشروح لنصوص التوراة . (المترجم)

التي تبحث بطريقة غير منحازة ، بعيداً عن أي هوى راسخ، أو كره مستمر ، وبحرية مطلقة ، وبدون نية مبطنة للتأثير على مجرى الامور البشرية » . ومن هنا القاعدة الاساسية : « تجنب الاقتناع بسهولة » . وبالطبع فالجهل داء وبيل ، ولكنه عندما يكون واعيا لنفسه لا يكون في الحقيقة خطرا ، ولا يصبح كذلك الا عندما يعتبر نفسه علما ، فيكون عندئذ جهلا مطبقا مليئا بالتأكيدات المثيرة للسخرية ، وبالتحديدات المزعجة : « فليس هناك ما هو اشد خطرا على الثقافة الراسخة في الذهن من تلك المداورات التي يقتنع المرء بعدها بأنه يعرف في حين انه لا يعرف فعلا . » ومن هنا قانون القوانين التالي : « لا تتحدث عن العالم وعن الانسان قبل ان تستنفد كل ما يمكن ان تقدمه طرائق البحث والتقصي حول نشأة العالم ، وما تنطوي عليه البشرية من مزايا » . فمن يسلك هذا المسلك يكون قد قام بكل ما يقدر عليه العقل البشري من أجل ان يستنير ، وبامكانه أن ينتهي من ذلك وهو في امان . « فيجب ان يكون وعي الكاتب مطمئنا ما ان يعرض ما هو أكيد على انه أكيد ، وما هو محتمل على انه محتمل ، وما هو ممكن على انه ممكن . » أليس ذلك شبيها بتعليق على قاعدة كنفوشيوس الكلاسيكية : «أليست المعرفة الحقة هي في أن نعرف ما نعرف ، وان لا نعرف ما لا نعرف ؟ » حول هذه النقطة لم يأت رينان بجديد .

يبقى ان نتساءل عما اذا كان العلم الذي نتصوره على

هذا النحو ، مع كل ما يتطلبه من تضحيات ، يستأهل هذا الجهد الذي نبذله .

على ذلك يجيب رينان بحزم : ليس بوسعنا ان نتجاهل الاهمية البشرية للعلم ، حتى ولو كنا على معرفة سطحية بالاشياء .

والجميع يلاحظون ذلك بسهولة : فالعلم مرغوب فيه لتطبيقاته العديدة ، ولمنفعته . الا يعزى الى العلم العديد من الاشياء التي تتعلق برفاهيتنا في الحياة ؟ الم يجعل آلاتنا الصناعية ، ووسائل تنقلنا السريعة ، ووسائل الاعلام حقيقة واقعة ، والشيء الاهم بين هذه الامور هو تلك الآلات الاكيدة ، الدقيقة والثاقبة التي تتيح لنا ان نوسع معارفنا ، ونتحقق منها على ضوء ما هو بعيد جدا ، أو قريب جدا ، وما هو صغير جدا ، او كبير جدا ؟

وهناك ما هو افضل من ذلك ، فالعلم مرغوب فيه لان تطوره يتيح لنا تجديد الانسانية بتنظيم حياتها تنظيما عقليا. فالناس لغاية اليوم هم عبيد الانتاج ، لكن تطبيقات العلم في صنع الآلات تجعلهم يتخلصون من هذه العبودية . وقد عبر رينان ، منذ سنة ١٨٦٩ ، عن بعض تلك الحقائق التي وجدها وجددها الكومندان لوفافر دو نوات . فلقد أتاح لنا التقدم الفكري في الماضي مثل تلك الاساليب التقنية التي ساعد إستعمالها في تخفيف الإستعباد ، ومن ثم ازالته . وقد كان هذا التقدم ضروريا لنقل التماثيل الضخمة ،

والعمل في السفن الشراعية الحربية ، ولطحن القمح . وخففت الاختراعات العملية ، التي اتاحت لنا استخدام الحيوان ، والهواء ، ومساقط المياه ، من وجود تلك العبودية . وما من شك في ان التقدم العلمي الحديث ، وتكاثر الآلات النافعة لم توفر لنا نتائج مماثلة وأكثر شمولا . ويقول رينان : « انا مقتنع بأن تقدم الميكانيك والكيمياء سيكون خشبة خلاص للعامل ، وان عمل البشرية المادي يتجه دائما نحو التناقص ، ويصبح أقل جهدا بحيث ان البشرية تصبح بهذه الطريقة أكثر حرية في الاخلاد لحياة اخلاقية وعقلية سعيدة .. »

وكنا نكتفي بهذه الاعتبارات لو لم يكن هناك اعتبار آخر يراه رينان في غاية الاهمية : فالعلم هو في الواقع ، ويجب ان يكون ، دين البشرية الحقيقي ، ولكي يوضح ما يرمي اليه من هذا القول يلفت انتباهنا بادىء الامر الى مجموعة ثانية من الافكار الخاصة بفلسفته النظرية .

ب) ان كلمة دين تنطوي على التباس كبير ، فاذا ما استنتجنا مدلولاتها الاساسية وجدناها ثلاثة .

ان ما يقصد عادة بالاديان هو ما يجب ان نسميه الاديان الوضعية ، ونقصد بها مجموعة المعتقدات التي تتعلق بأصول العالم ، وبما يخبئه القدر ، وبالقوى غير الطبيعية التي علينا ان ننال رضاها ، او الا نغيظها على الاقل ، كما

انها تتعلق بقيم بعض الطقوس العبادية وبعض الحركات والجمل والمشاعر . فمختلف الاديان التي تتصورها على هذا الوجه يصنفها رينان بتحفظ كما يلي : ما يؤمن منها بعبادة الاصنام ، وما يؤمن منها بتعدد الآلهة ، وتلك التي تؤمن بأحادية الاله . وتكاد ترتبط كل هذه الاديان مباشرة بروح الشعب . ويتضمن معظمها ميتولوجيات وطقوسا غريبة ووحشية احيانا . فما اعتقدته البشرية ومارسته في هذا المجال معقد تعقيدا مذهلا ، ومستغرب اشد الاستغراب .

ونشير اشارة خاصة الى ذلك النوع من الديانات الذي دعي في القرن الثامن عشر الدين الطبيعي ، وهو ليس سوى مذهب الهي يدّعي انه دين عقلاني . فأدلته على وجود الله ، وخلود النفس ، والطابع المقدس للضمير الاخلاقي ، وحرية الانسان هي الاعمدة الاربعة التي يحاول ان يستند اليها ذلك الدين لينعت نفسه بأنه دين طبيعي . فهو يغض الطرف عن تلك العناصر الخرافية التي تزدحم بها الديانات الوضعية ، ويدّعي بأنه لا ينطلق بالطبع الا من العقل ، وانه ليس سوى فلسفة أقامت الدليل على وجودها .

ولكن هناك طريقة ثالثة لاطلاق معنى معين على كلمة دين . فالدين في مفهومها : « معتقد يرافقه الحماس الذي يتوج القناعة بالاخلاص ، والايمان بالتضحية » . فمن هذا

المنطلق يتحدث الناس عن دين الشرف ، والجمال ، والخير ، والمثل العليا .

ولا تغربن عن بالنا تلك المعاني العديدة لكلمة دين ، لانه يصعب علينا فهم بعض النواحي الاكثر ايحاء في فلسفة رينان دون العودة اليها .

ونميل الآن ببصرنا نحو الكون .

ان أحد نقاشات رينان الفلسفية يحمل عنوان **حقائق يقينية** . وفي هذا النقاش بالذات يؤكد على الحقيقة التالية: لا يقوم شيء في العالم عن طريق تدخل القوى العجائبية ، لكن هذا ليس في نظر رينان الحقيقة اليقينية التي لا تقبل النقاش ، فهناك حقيقة اخرى لا تقل قوة برايه ، وهو لا يدخر فرصة الا ويذكرها فيها .

فالكون ، كما قلنا سابقا ، يتجلى لنا بشكل صيرورة هائلة ، وما من شيء فيه يبقى بالحقيقة ثابتا ، فكل ما فيه يبدو في تغير دائم ، وفي تطور مستمر ومدهش . ورينان لوحده يصرّح لنا بان تلك التغيرات وذلك التطور لا يتمان الا في اتجاه معين . وكل شيء يؤكد لنا صحة ذلك . فهناك في هذا الكون المتبدل أشياء تتخذ لنفسها اتجاه القوى الطبيعية ، وتتقدم باستمرار في اتجاه محدد تماما . « فكوكبنا يسهم في القيام بعمل عميق الغور » .

فما هو هذا العمل اذن ؟ يعتقد رينان بأنه يدرك كنه

هذا العمل . وبافصاحه عما يقوله عنه يعتقد انه يسير على الطريق ذاتها التي شقها من قبله هيغل . فما يجري في هذا العالم الذي يضج بالغريزة ، والذي يجهل نفسه بشكل أولي ، هو « الوعي » ، و « التفكير » . « فعبر غيوم كون لا يزال جنينا ندرك قوانين تقدم الحياة ، ووعي الكائن الذي ينمو على الدوام ، وامكانية وجود حالة يكون الكل فيها في حالة نهائية كما تكون البراعم في الشجرة ، وكما تكون آلاف الخلايا الحية في الكائن الحي ، حالة تكون فيها حياة الكل كاملة » . وتلك ستكون الحالة التي يتحقق فيها وجود الله . ان يكون الكون موجودا ذلك امر لا يدعو الى الشك لانه في حالة صيرورة . وان يعتبر الله كمثال اعلى فهذا امر لا يمكننا الجزم به ، ولكن ما يمكننا ان نعلنه بلا وجل هو أن الله على هذا الوجه « موجود » . « فالعالم كله يسبح في تلك النسمة الالهية » . « وهدف العالم هو تطور العقل » وبالتالي فالعقل هو الله .

وبالطبع ان هذا لا يعني ان هناك ، كما يقول العرف المسيحي ، عناية الهية أوجدت العالم ، وكوّنت الكون خارجا عنها ، وهي تراه يحيا ، وترعاه كما يفعل النحات الذي يصنع تمثالا ويقف يتأمله بعد ان يفرغ من صنعه ، لكنه يعني ان الكون كشجرة غزيرة الخصب تنمو بدون اتجاه معين ، وتسعى الى الاكتساء بالازهار بادىء الامر ، ومن ثم بالثمار . فأزهارها وثمارها هي المثال الاعلى ، أي الله .

واخيرا ، علينا ان نعرف كيف نرى في الكون عملية خلق الهية بالمعنى الشامل ، عملية الهية بالمعنى الحرفي تمثل في الواقع عملية تبلور مستمرة لهذا المثال الاعلى .

ولكن ماذا ينتج عن ذلك ؟ هناك استنتاجات عديدة ورئيسية في نظر رينان .

الاستنتاج الاول : ان ابرز ثمار جهد الطبيعة الكبير هو تلك المجموعة من الكائنات التي يتجلى فيها وعي العالم في أجلى مظاهره . ولكن تلك المجموعة هي مجموعة الناس ، وعلى الاخص مجموعة الناس المتحضرين . وهناك لدى الحيوانات ، وخصوصا العليا منها ، وربما لدى النباتات بالذات ، درجة اولى من درجات الوعي . ولكن هذا الوعي يتجلى بأروع مظاهره لدى الانسان فقط . ولكونه شديد الغموض أيضا ، ومشكوكا فيه لدى ملايين الافراد ، فهو يسري متضحا ومتكاملا بلا انقطاع لدى أبرز ممثلي تلك الحضارة الغربية التي يميز المرء فيها اكثر من أي مكان آخر ما سيكون عليه الله في يوم من الايام .

الاستنتاج الثاني : حين لا يعرف المرء ذلك العمل الذي يستمر في الكون ، وحين لا يفكر الا باللهو والترف ، وحين يرفض أن يلقي على نفسه المهمات بالذات . ان امرءا يتصرف على هذا النحو الا يقف عائقا في تحقيق وجود الله ؟ وبتصرفه هذا الا يهجر ، على الاقل ، العمل المنوط به ؟ وهو عمل جدير بأن ينجز فعلا ؟ اولئك المفكرون وحدهم هم

فعلا الاذكياء والعقلاء الذين يحملون الحياة على محمل الجد، ويفعلون كل ما بوسعهم من أجل المثال الاعلى .

الأستنتاج الثالث : ان هـذا الوعي الذي نجـده في ذواتنا ، والذي يؤكد على اهمية مصيرنا ليس ابدا وعيـا كاذبا ، « فالطبيعة لم تضع في البشرية ما هو مدعاة للغش ، ويمكنك حتما أن تستنتج مصيرها مما هو موجود في ذواتنا، لان « الله في ذواتنا » . فلنعرف ذلك معرفة حقة ، ولنحسن التصرف على ضوئه ، ولتكن لنا الارادة لان نسعى جاهدين للاسهام « بالعمل الالهي » في هذا الكون العجيب .

لهذا يدعونا رينان الى التفاؤل ، فالعالم ، كما هـو قائم بالطبع ، ليس جميلا البتة ، فلنثـق بأنه سيصبـح جميلا . فالمثال الاعلى يتطلب وقتا طويلا لكي يتحقق ،ولكنه سيتحقق . « لندع مصائر هذا الكوكب تتكامل اذن دون ان نزعج انفسنا ، فصرخاتنا لن تفيد شيئا ، ومزاجنا السيىء قد يتبدل ، وليس من المؤكد بأن الارض ستبدل مصيرها ، ولعل هذا التبدّل حدث لعوالم كثيرة، وربما اعتبر عصرنا ذات يوم ، الذروة التي يتعين على البشرية أن تنحدر بعدها، ولكن الكون لا يعرف اليأس فهو يعاود على الدوام الكرّة من جديد ، وكل عثرة من عثراته تعيده شابا رشيقا زاخرا بالاحـلام . فتشجعي تشجعي أيتها الطبيعة ، وتطلعي دوما الى الهدف الذي تفتقدينه منذ الأزل ، واسعى لعبور الطريق الضيق الذي يؤدي الى السماء ، فأمامك الزمان والمكان الرحب

ميدان تجربة ، فحين يحق لنا ان نخدع انفسنا دون ان نعاقب نكون مطمئنين دائما الى النجاح ، وسعداء، هم اولئك المساهمون في هذا النجاح النهائي الكبير الذي سيكون به اكتمال قدوم الله » .

فهذه الخواطر هي خواطر انسان مؤمن ، ورينان يسترسل فيها ويفصلها ويوضحها في نقاشين فلسفيين دعا اولهما **الاحتمالات** ، والآخر **الاحلام** .

فعملية تحقيق وجود الله تتم بواسطة البشرية ! وربه قائل ان ذلك حلم جميل اذا قضي على الارض بأن تفنى ، او بكل بساطة اذا عادت الغزوات البربرية من جديد لتهدم الحضارة كما حدث في نهاية الامبراطورية الرومانية . لكن هذه الاعتراضات ستكون سطحية بالطبع ، فانسان اليوم مسلح بوسائل ستخلص دائما ما هو جوهري من اكتشافاته مهما تكن اضطرابات التاريخ المقبلة . اما زوال الارض فلن يكون بالطبع سوى حادث عارض، ان نحن وجدنا قبل زوال الارض طريقة لعقد علاقة مع سكان الكواكب الاخرى ، او حتى النجوم الاخرى . وسيكون الله موجودا ، وربما لا يكون قد حل بعد في ضمائر مرتبطة بأجسام على شكل بشر . ولا ضير اذا جاء يوم اسهم فيه جهدنا في تكوين الله !

ويسترسل رينان في حلمه . فعلى اي وجه سيتحقق الله في النهاية ؟ هناك حظ قليل في ان يكون له الشكل الديمقراطي عن طريق المساواة بين كل الناس ذوي الوعي

الكامل المتكامل . وليس هناك اي حظ في ان يكون على شكل نخبة تسيطر على جمهور شديد التعقل يسلس القياد لعلمه وعقله الصالح والعادل . وبامكاننا ايضا ان نتصور بان الله سيتخذ شكل وعي موحد يلتقي فيه الجميع ، كما تلعب خلايا الجسم الواحد دورا في تكوين بعضها بعضا . ولكننا سنكون على خطأ ان نحن طلبنا في موضوع كهذا توضيحات مستحيلة . ان امرا واحدا يهمنا هنا هو أن ندرك بأن « العمل الالهي » لا يمكن فهمه ، فلنكتف بمعرفتنا انه ليس مفهوما .

ونجد في ذلك ايضا امرا نفهم بواسطته لماذا ، وبأي معنى على العلم وتكامله ان يمثلا بالنسبة لنا دينا معينا .

وبالفعل ، اذا كان المثل الاعلى ان نوجد في الكون وعيا للعالم ، وان نحقق بفضل هذا الوعي اقصى ما يكون من جمال واخلاق ، فكيف لا نرى هذا المثال الاعلى ؟ ان العلم هو الذي ينبغي ان يكون اعظم اعمال البشرية . فمن اجل تحقيقه ينبغي إن يخصص كل « تديننا » ، اي ذلك « الحماس » ، وذلك « الايمان » ، وروح التضحية تلك، التي هي جميعها جوهر القداسة .

ولذلك فاننا نحمل العلم على محمل سيىء ان نحن أردنا تطبيقه بدافع حشري فحسب ، ولعل ذلك شبيه بخادمة فضولية تحاول معرفة ما يحدث داخل بيت الجيران . واننا نحمل العلم على محمل أسوأ ان نحن اردنا تطبيقه كباحثين

وضعيين وهمنا الوحيد المنافع التي بوسعنا ان نجنيها من المصنع والمتجر . ان ما نطلبه من العلم هو امر ارفع من ذلك بكثير ، انه معرفة كنه العالم بالقدر الذي نتوصل اليـــه ؛ ونطلب منه ما يمكن ان يوفره لنا لوحده ، أي الضـوء في الظلمة الحالكة التي تلفنا ، « ونظام الاشياء » التي نحـن محرومون منها حرمانا اليما . فالعلم ، والعلم وحده هـو الذي يمكنه ان ينمي بزور ذلـك القبس الالهـي الكامن في ذواتنا على نحو غامض .

واذا سلمنا بهذه الحقيقة ، فاننا ندرك الامر التالي : انه لضرب من الجنون بألا نخصص للعلم كل جديتنا ، وكل قوانا ، وحياتنا كلها . فالعلم وحـده يخلصنا مـن آفتين عظيمتين هما : الجهل والخطأ .

وهكذا نرى رينان في قمة ابداعه يستقر على وضـع يقيِّم فيه الفكر الديني والاديان كما حددها .

والاديان الوضعية ؟ كيف لا ندين بشدة اساطيرهـا وطقوسها ومذاهبها ؟ ان في تلك الاديان ما هو صبياني ويثير السخرية ، وفيها ما هو خسيس وضار ، حتى ان في ارفع تلك الاديان ما يدعو الى الانذهال . « لقد قيل لكـم بأن الانسان الظريف ليس عليه لكي يكون مسيحيا ان يغير شيئا من مبادئه الاساسية ، اما الآن ، وقد حدث ما حدث ، يأتي احدهم طالبا ان تدفعوا علاوة على ذلك حسابا ضخمـا ؛ فذلك الدين الذي لم يكن ، كما قيل ، الا اخلاقا طبيعية ،

يتطلب فوق هـذا وذاك طبيعـة مستحيلة وميتافيزيقيـا مستغربة ، وتاريخا وهميا ، ونظريـة في الامور الالهيـة والانسانية هي في مجملها مخالفة لمنطق العقل » .

هل هو الدين الطبيعي الذي قال به القرن الثامن عشر؟ كلا، فلا شيء ينتظر من ذلك الدين ابدا ، فتحديداته المنطقية تدور في كل الاتجاهات ، وليس هناك تحليل يتعرض لبعض النقد ، وليس هناك في الواقع أي دين مقنع . فلا نتأسفن اذن على ذلك كثيرا . فالناس لا يصبحون أخيارا عادلين اثر عملية مقنعة يفهمونها ويستوعبونها ، لان ما يسيرهم هو من طبيعة مغايرة تماما .

فهل ينبغي ان نستنتج من ذلك اذن بان الدين أمـر باطل مكتوب عليه بالزوال ويجب تخليص البشرية منه ؟ هنا يقع الالتباس الخطير . بالطبع « اذا كنا نقصد بالدين مجموعة نظريات موروثة بشكل تقليدي تتخذ شكلا خرافيـا متحيزا ومتعبا، يجدر بنا القول دون تردد أن الاديان أرّخت عمر البشرية ، ولكن الاديان ليست متأصلة في عمق الطبيعة البشرية بالذات ، فهي ستنقرض ذات يوم » أما اذا كنـا نقصد بالدين « دين الفكر والحقيقة » ، أي تلك العبـادة الحارة للمثال الاعلى ، والحق ، والخير ، والجمال ، وهي التي تحدثنا عنها منذ قليل ، فليس هناك ما هو ابقى منه على الزمن . « فلنصغ الى صوت الضمير ولنصدقه » وهو يؤكده لنا . فاذا فهم على هذا النحو « لا يكون الديـن خطأ

شعبيا » فلا شيء أبعد عن الصواب من تفكير اولئك الذين اذا ما سعوا الى تصور البشرية الكاملة تصوروها بلا دين . ان مكس ذلك هو ما ينبغي ان يقال .. فحين يرى الانسان حقارة وبطلان كل ما ليس هو حق ، وخير او جمال ، لا يصبح عندئذ متدينا فقط ، بل غارقا في عبادة دائمة ، ومتنقلا بين نشوة ونشوة » . والبشرية « متدينة » ، لذلك ينبغي ان تبقى على ما هي عليه حتى لا تتخلف عن اللحاق بمصيرها .

وينهي رينان كلامه بهذا الاستنتاج : مهما تكن الديانة منحطة ، حتى ولو كانت أتفه الديانات الوضعية ، يجب الا تحمل على محمل الهزء . فهي مهما تكن وهمية تحتفظ بأهمية وقيمة معينة . « أما بالنسبة لنفوس الدرجة الثانية ، التي لا يمكنها ان تحب الله مباشرة ، اي ان تجد الحقيقة ، وتخلق الجمال ، وتفعل الخير من أجل الخير ، فالسلامة هي في أن تحب شخصا يلمع في محياه بريق الحق، والخير ، والجمال ، وان العدد الاكبر من الناس هو بحاجة لان يمارس العبادة على درجتين . فجماهير المتعبدين تجد وسيطا بينها وبين الله » ، وهذا الوسيط هو ما قدمته للانسانية المعذبة كل الاديان الوضعية تقريبا ، فقد سكبت لها المدام فأسكرتها حتى الثمالة ، وذلك لكي يبقى لها معنى المثال الاعلى ، ومعنى الالوهة . ويشتمل اردا انواع الديانات الوضعية في أسوا الاحوال ، على جزء من ذلك

اللانهائي الذي يتيح لنا الدين الحقيقي ، روحا وحقيقة ، لا ان نفهمه فحسب ، بل ان نشعر بقيمته التي لا تجاريها قيمة .

ومن هنا هذا الاستنتاج : علينا ان نبرر موقف كل الاديان الى حد كبير . « لقد أصبح الدين قضية ذوق شخصي لا رجوع عنه » . فعلينا ان نفهمه ، وان نحترم ما يختار كل امرىء لنفسه ، ولنصر فقط على ان يحترم الآخرون أدياننا نحن ايضا « فاجبار المرء على تكوين معتقد له هو امر لا معنى له فعلا » . يقول رينان أنظروا الديانة المسيحية : « فنحن نطالب بحماس شديد بأن يكون لنا الحق بألا نؤمن بها ، وحتى ان نقارعها في ذلك الشكل الذي نعتقد به ، ولا تقل حماستنا في ذلك عن مطالبتنا بحق الكاثوليك في الاعتقاد بها ، وبمطابقة ممارستهم لعقيدتهم . فكل تصرف لا يتساهل في هذه الامور هو عمل اجرامي . ويجب ان يمنع استخدام القوة منعا باتا حين تكون هناك « سلطة » بوسعها اتخاذ اي اجراء غير الاقناع والتوعية والتعليم . والتقدم الذي يحصل عكس ذلك ليس تقدما».

وفي النهاية أن المذهب الروحي هو المذهب الحق ، ولكن يجب التفاهم حول معنى هذه العبارة . ان يكون المرء روحانيا لا يعني ان يسلّم بأن لنا جسدا وروحا متميزين بالمعنى التقليدي للكلمة . « فالحق هو ان هناك مادة وحيدة ليست جسدا ولا روحا ، ولكنها تتجلى في نوعين من المظاهر هما الجسد والروح ، وان ليس لهاتين

الكلمتين من معنى الا في تقابلهما ، وان هذا التقابل ليس سوى تقابل في الافعال . فالروحاني هو ذلك الذي اقتنع ان لاعمال الروح قيمة صورية . والانسان مكون من مادة ، أي من نطاق ملموس يتسم بميزات بدنية ، ومن روح ، أي أنه يفكر ، ويشعر ، ويعبد . والروح هي الغاية. فكما أن هدف النبتة هو الزهرة ، فبدون جذور وأوراق لا تكون هناك أزهار . » فحين يفهم المرء ذلك ويصدقه ، معناه انه روحاني . وعوضا عن ان يضع العلم في خدمة جسده ، فهو يضع جسده في خدمة العلم ، والخير ، والجمال الذي يصدر عنه . وهذا يعني العيش بتقوى الدين ، بكل ما للكلمة من معنى ، وعلى الانسان ان يعيش بهذه التقوى لكي يخلص نفسه ويسهم من جانبه في خلاص الكون .

ج) فهل يشكل ما استعرضناه اذن كل فلسفة رينان النظرية ؟ ليس ما ذكر هو كل فلسفته بالطبع ، ولعل اي شيء آخر لم يخالطها حتى سن الخامسة والعشرين حين حرر **مستقبل العلم** ، ولكنه بقدر ما كان ينضج كان ينوع ، بشكل غير منتظر ، في التعبير من أفكاره . فذلك الشاب الذي حركت ريشته أحداث سنة ١٨٤٨ ، شهد انقلاب سنة ١٨٥١ ، وأهوال سنتي ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ فكانت تلك دروسا قاسية الوقع على كاتب متفائل ، وهي دروس آلمته لانه كان يحمل في أعماق نفسه بزور الشك والهزء .

ولكلمة « شك » أو « مذهب الشك » دور كبير في

مؤلفات رينان الفلسفية،ولكنه لا يكرر بعد « رواية ــ كولار» ذلك القول المأثور : « اننا لم نترك للشك قرارا » . فهناك بالفعل فرق بين شك وشك .

ويمقت رينان الشك في احد اشكاله . فهو يطرحه جانبا باستخفاف يطال كل اولئك الذين يهزأون بكل شيء للذة الهزء فقط ، فأولئك الذين يرفضون . لحبهم الرفض، ويتهكمون من اجل التهكم ، فهؤلاء لا يرفضون فقط التفتيش عن شيء ، بل يهزؤون اكتافهم امام جهود اولئك الذين يبحثون . فكل شيء هو بالنسبة لهم مبعث سخرية وهدم جارف ، ولا شيء أبغض على النفس من وضع كهذا الوضع من التشهير العلني الفظ .

ولكن الشك يظهر هنا بشكل آخر هو ذلك الشكل الذي يدعوه رينان « الشك الاكبر » ، وهو شك تجده لدى بعض كبار الفلاسفة . وما يقود اليه هو نظرة فاحصة ، ومنهجية دقيقة لوسائل اعلامنا ، وأساليب براهيننا ، وهو نقد قاس للاوضاع الانسانية . وبالطبع ان شكا من هذا النوع لا يذهب مذهب الهزء الناتج عن الشك ، كما انه لا ينطلق من تفكير سطحي ، فهو تفكير متماسك وعميق .

اما هذا الشك فرينان يعي تماما انه يميل اليه منذ ولادته . لذلك تتضمن **صلاته في الاكروبول** ، الذائعة الصيت ، مقطعا خاصا يتوسل فيه رينان الى الالهة أثينا ،

الهة العقل الكلي ، لكي تخلصه من ذلك الشك . « هنـــاك فلسفة حملتني بلا ريب ، على الاعتقاد بان الخير والشر ، واللذة والالم ، والجمال والقبح ، والعقل والجنون يتحول بعضها الى بعض عن طريق فوارق دقيقة مبهمـــة كتدرج الالوان في عنق اليمامة ، فتصبح الحكمة عندئذ تلك الفكرة القائلة بعدم محبة شيء ، او كره شيء بشكل قطعي » . ولكن رينان يود الافلات من هذه الفلسفة . « قيل كن واثق الخطى ، وهكذا سأقاوم مفرياتي وشكي الذي يجعلني ارتاب بالشعب ، كما سأقاوم تكدر فكري الذي يجعلني ، في حال وجود الحقيقة ، أبحث عنها أيضا على ذوقي الذي يمنعني من الخلود الى الراحـــة بعد ان يكون العقـــل قد قــــال كلمتـــه » .

كذلك يتصوّر رينان انه تخطى ذلك الشك بعد ان مرّ به واستفاد من دروسه . وقد كتب : « اننا نطرح الشك التافه ، والجزم الجامد على الســـواء ، فنحـــن جزميون ناقدون ، نؤمن بالحقيقة رغم اننا لا ندّعي اننا نمتلكهـــــا كليا » . ففي ذلك نقطة النهاية الطبيعية لتطور امتد طيلة قرون عديدة عبر نقاشات طويلة ، وقد انتقل بشكل دائم من جزم أقل صفاء الى جزم أكثر صفاء بفعل نظرات شكاكـــة فاحصة شديدة الحذر . وهو جزم قاطع قال به الجهـــال والبسطاء في البداية بدافع الغريزة . وعلى هذا الجزم ردت مذاهب الشك التام عند اتباع بيرّون في العصور القديمة ، ومونتاني في العصور الحديثة . ويمكننا ان نقابـــل مذاهب

الشك الاكثر جذرية بمذاهب ذات فطرة سليمة متواضعة ، كما كانت فلسفة سقراط في القديم وكما هي فلسفة رايد في العصور الحديثة . ولكن مهما يكن هذا النوع من الجزم السطحي منطقيا فانه يسبب اعادة نظر عنيفة . فتلك المذاهب الشكاكة جعلت اعادة النظر تتطرق لدراسة اداة المعرفة بالذات ، وكان ان ظهر عند كانط ، وباسكال ، وجوفروا مذهب الشك العظيم ، الرهيب والمتسامي . وقد تخطى الفلاسفة مذهب الشك حين توصلوا الى ذلك الجزم الناقد الذي تخلى عن المطلق دون ان يتخلى عن الحقيقة .

يبقى ان نعرف ما اذا كان رينان قد تحرر فعلا ، على ما يبدو ، من مذهب الشك . فكم من مرة شاهدناه غارقا في أزمة من الشك والهزء ؟ ثم اليس في كل مرة يكشف عن كل ما في أعماق نفسه ؟

الا اصغ الى هذا المؤمن الذي تكلمنا منه لتوّنا ،والذي كان ، والذي كان متأكدا تماما من قيمة العلم ، ومن الديانة العلمية . يقول : « لقد انخدع كل اولئك الذين اعتقدوا لغاية اليوم انهم على حق . فهل بامكاننا ان نعتقد بدون زهو مجنون ان المستقبل يديننا كما نحن ندين الماضي ؟ » والى ذلك يضيف : « أن الآلهة تصبح كالناس فليس من المستحسن ان تكون خالدة ، فالايمان الذي يتملك انفسنا يجب الا يكون قيدا . فنحن تبرأنا منه حين لفّ بعناية في ذلك الكفن الارجواني ، حيث ترقد الآلهة» . الا ينطبق ذلك في

على الاديان الوضعية ؟ الا يخشى ان نرى ذات يوم دين العلم دينا مؤقتا مشكوكا فيه ؟

الا يخشى ، اكثر من ذلك بكثير ، ان يكون المرء اكثر وعيا لبعض الحقائق التي يشير اليها رينان ؟

هناك ، بادىء الامر ، اشياء لا نعرفها ، وليس بامكاننا ان نعرفها البتة ، ولعلها اشياء حاسمة اكثر من سواها . ولنتناول بهذا الصدد قضية أصل الكائن الاول . فقد كتب رينان يقول : « يرى الانسان ، حتى هذا الوقت الذي وصل اليه ، انه لا يعرف شيئا عن السبب الاول للكون ، ولا عن مصيره هو بالذات » . فالباب مفتوح على مصراعيه في هذا المجال للمعتقدات والآراء . ولكن ما الفرق بين الاعتقاد والمعرفة ، وبين الرأي واليقين !

وبالتالي ، لعل التاريخ ، الذي ينبغي وضعه ليفضي بنا الى علم متكامل ، ليس تاريخا يمكن تحقيقه بشكل تام ، فهو يكف عن ان يكون ممكنا حين تنقصه الوثائق ، ولعله مدوّن بكامله في أقل جزء في الكون . ولكن يجب ان تكون لنا أعين غير أعيننا لفك تلك الرموز .

وليس هذا كل شيء . فلنتناول التاريخ في افضل نتائجه . فهو حتى من هذه الزاوية ليس سوى « علم صغير ، هزيل ، تخميني » غير قادر على النفاذ الى تفاصيل الماضي الصحيحة ، والى استطلاع نفوس الافراد والجماهير

استطلاعا فعليا ، فهو يقتصر حذاقا على معرفة طائفة من الامور ، والتعرف على عجزه الخاص .

وحتى اننا لو قمنا اليوم بوضع قائمة بما نعرفه ، الى جانب ما يمكن ان نعرف ، وبما هي معرفتنا عن تاريخ الاشياء ، الى جانب ما يجب ان تكون عليه لكي تكون كاملة ، فكيف لنا أن نتجنب ذلك الانطباع الغريب عن جهلنا العظيم الذي لا ملاج له ؟

كل ذلك يعرفه رينان ، ويقوله ، ويشير اليه بسخرية لبقة نراها مشوبة بالكآبة . وغالبا ما يرافق هذه السخرية بصيص من الفرح ، فيظن البعض ان رينان يلتذ بملاحظة ضعفنا وعجزنا .

ويحدث ان نرى هذا المشهد . فرينان ذاته المتعلق تعلقا قويا بالدين ، والمتفائل بالمثال الاعلى ، لا يدخر مناسبة للقيام بما كان العبد الروماني مكلفا القيام به امام المنتصر . وفي ذروة أعماله الحماسية يخص نفسه بقسم صغير من الهزء المهدّىء . فقد كتب يقول : « لا يكون الانطباع عن الامور البشرية كاملا الا اذا أفردنا مكانا للهزء بجانب الدموع، وللشفقة بجانب الغضب ، وللابتسامة بجانب الاحترام ». ومن هنا كانت له معاودات دائمة الى الذات ، ولعل تلك الفضيلة التي خصها بأجمل المديح ليست سوى نوع من التضليل . فمن يدري اذا كانت العواطف الجميلة والكبيرة ليست سوى اغراء تستخدمه الطبيعة لتسيير الافراد

واستغلالهم من أجل غاياتها الخاصة ؟ ومن يدري اذا كان لا يصح ان يقول المرء لنفسه عن تضحيته بنفسه : « لعلني غبي أبله ، ولكنني أفضل ان أكون غبيا تقيا على أن أكون مجرما » . ومن يدري ، لعل الابيقوري المبتذل ، والشكاك السخيف ، هما أعقل العقلاء ؟ ولعله ليس للبشرية في العالم أهمية تفوق أهمية خلية من النمل . « ليست البشرية ربما شيئا يحمل على محمل الجد » . ولكن من الاجدى بالطبع عدم اعتقاد ذلك ، والاجدر بنا ان نتصرف وكأننا لا نرى هذا الرأي .

ألسنا بعيدين جدا عن الايمان المعبّر ؟ ألسنا متأثرين برينان المولع بالدين ، والعلم ، والمثال الاعلى ؟ هل استجابت الالهة اثينا لصلاة عبدها المؤمن ؟ هل حررته من كل ذلك الشك ؟ يقول رينان في آخر كلمة له : « على كل فرد ان يحترس مما هو متحيز ومطلق في تفكيره . فلا نتصورنّ أبدا اننا على حق ، وان اخصامنا هم على خطأ مبين » .

٣ ـ ثالثا

مهما يكن رأي رينان نسبيا ، فهناك على الاقل بعض المواضيع التي يظهر فيها رأيه بجلاء تام .

أ) لقد استغرقت أعمال رينان التاريخية معظم

فترات حياته المجدة ، وهي التي حققت له تلك الشهرة العالمية . فحول تلك الاعمال التاريخية ، وخاصة حول كتابيه : **اصول المسيحية** ، **وتاريخ بني اسرائيل** ، ثارت النقاشات الحامية التي عادت عليه بالعديد من الاعداء ، والمعجبين المتحمسين . ونحن في حديثنا هنا عن رينان كفيلسوف لا يمكننا ، لضيق المجال ، الا ان نرجع الى فلسفته بالذات .

ولكن يجدر القول بان مؤلفات رينان التاريخية توضح بعضا من افكاره الفلسفية ، وتبرز بعضها وتطمح الى تبريره .

وتوضح تلك المؤلفات أفكار رينان حول نقطتين هامتين . فهناك قانونان برأيه يبدو أنهما يسيطران بالفعل على تكوين الحضارة البشرية .

القانون الاول هو الآتي : بدأ الفكر البشري في كل مواد المعرفة بنظرات غريزية محض ، وتوصل بمرور الايام لان يعي الاهداف التي كان يسعى اليها دون ان يدري ، وكذلك الوسائل التي كان يفترض به ان يستعملها للوصول الى تلك الاهداف بطريقة اكثر أمانا ، لانها كانت اكثر عقلانية . وقد كتب رينان يقول : « ان اول خطوة نحو علم الانسانية هي ان نميز مرحلتين في الفكر الانساني : **العهد البدائي** ، أي عهد العفوية التي توصلت فيه القدرات بما فيها من خصب خلاق ، دون النظر الى هذه القدرات بالذات ، عن

طريق جهدها الخاص ، الى ادراك أمر معين لم تكن قد رمت اليه ، **وعهد التفكير** ، وهو العهد الذي نظر فيه الانسان الى ذاته وسيطر عليها ، وهو عهد التنظيم والتصرفات المزعجة وعهد المعرفة المتناقضة والمتنازع عليها » .

اما **القانون الثاني** فهو على الاخص الاكثر انطباقا على تاريخ المعرفة النظرية . فأعمال الفكر تمر بمرحلة « تلفيقية » ، باديء الامر ، هي نوع من الحدس العام الغامض والمبهم المتعلق بطائفة غير مدروسة من الاشياء . ويقدم لنا هذا الحدس فكرة أولية تقريبية شبيهة بفكرة الطفل العاطفية عن الكون الذي يحيط به ، وشبيهة كذلك بعاطفة الانسان القليل الثقافة الذي لديه شعور بوقت يمر ، وبتاريخ يتم ، وحتى بتطور أشياء لا يميز فيها المنحى ولا العناصر . وتمر تلك الاعمال في ما بعد بمرحلة تحليلية . ولكن ما هي قيمة هذا الشعور الغامض من الاشياء لدى عقل ساذج ؟ تلك هي حال الفكر المكره على ان يركز انتباهه حول منتجاته العفوية ، وان يفصل من طريق التحليل العناصر التي تكوّن تلك المنتجات ، وان يضبط بواسطة التفكير عمليات الملاحظة والتجريب ، والقيمة الحقيقية ، وعلاقات كل عنصر من تلك العناصر ، وهو عمل شاق وبطيء ، وعار من الجمال الخلاّق الذي كان يتمتع به الحدس الاول الضبابي والشعري ، عمل هدم نجس شبيه بعمل العالم الطبيعي الذي يشرّح الزهر ، او يفصل القشرة الناعمة التي تزين جانح الفراشة من أجل دراستها ! لكن

هذا العمل الخصب يمهّد بالفعل لمرحلة ثالثة هي عبارة عن عملية تركيب تختلف تماما عن المرحلة التوفيقية الاولية . فجمع طائفة من الحقائق المحللة والمضبوطة في نظرية عامة أمر يختلف تماما عن الشعور الغامض بمجموعة معينة . فأي فرق مثلا ، بين هذا الذي يعرف الهندسة الاقليدية بعد ان يكون قد « شحذ تفكيره لفهمها » بالتفصيل ، وبين من تكوّن لديه فقط انطباع غامض عن علم محتمل قد يهتم بكل الصور التي يمكن تشكيلها في الفراغ .

وقد وضع التاريخ هذه القوانين امام عيني رينان ، واذا لم يكن يهدف من كتابة تلك المؤلفات التاريخية القاء الضوء بشكل خاص على تلك القوانين ، فقد تمنى بأن تقدم تلك المؤلفات تأكيدا رائعا عن تلك القوانين .

ونكتفي هنا بسرد بعض الامثلة .

اننا نجد تأكيدا مميزا مثلا ، في كتابه حول **أصل اللغة** الذي بدأ كتابته سنة ١٨٤٨ ، واكمله فيما بعد . فالكلام البيّن الواضح هو قدرة خاصة بالانسان ، فهو يتيح له العيش في المجتمعات المعقدة ، وحفظ أثر مخترعاته ، ونقل الحقائق التي يكتسبها بواسطة التربية ، وكذلك نقل فكرة الطرائق التي تجعل اكتشاف تلك الحقائق ممكنا ، كما انه يرى في الكلام قدرة على التفكير بوضوح في مسائل مجردة وصعبة . ولكن كيف يفسر رينان وجود هذه القدرة لدى الانسان ؟ ان التاريخ يجعل من اللغة المفهومة هبة عجيبة ،

وميزة اختص الله بها الانسان . واذا كانت مصطلحات التعبير عند سائر الشعوب مختلفة ، فاننا نرى أنفسنا مجبرين على شرح ذلك بالتطلع الى لعبة ساحر في برج بابل . وخلافا لهذه الفكرة يتوهم البعض بان الامر كذلك بالنسبة للغة الواضحة والكتابة على حد سواء . فهم يعزون اصل اللغة الى اختراع بشري اصطناعي محض ، وهاتان فرضيتان احداهما اكثر خطأ من الاخرى . فلو ان اولئك درسوا وقارنوا اللغات الاولية وتطورها في ما بينها ، لكانوا تحاشوا الخطأ الاول والثاني ، ولكانوا رأوا عندئذ بأن اول مظاهر الكلام ليس سوى أعمال تعجب غريزية ، وغامضة ، شبيهة بصيحات بعض الحيوانات . وكانت أعمال التعجب تلك تشير في البداية الى الاشياء والمشاعر التي تجري في آن واحد امامهم ، والى الاعمال التي يعتزم القيام بها بخصوصهم . وشيئا فشيئا ، وبشكل تدريجي ، أخذت شتى المصطلحات التعبيرية تتكون انطلاقا من تلك المرحلة الغامضة . وقد قام الناس بوضع تلك المصطلحات ، كل على هواه ، وفقا لقوانين خاصة بهم ، وبشكل خاص عن طريق تقليد بعض أصوات الضجيج ، وعن طريق استيعابهم للاستعارات . وبمرور الإيام تدخل واضعو القواعد ، ومؤلفو المعاجم ، والمهتمون بصفاء اللغة من كل عيب فسجلوا استعمالاتها ، ودوّنوا قوانينها في قواعد ، على غرار مؤلفي مباحث علم البيان والعروض ، لكنهم حتى ذلك

الوقت ، كانوا عاجزين عن وقف عجلة تطـور اللغـات ، فاستمر هذا التطور بالرغم منهم ، ووضعت الغريزة كـل شيء في مهـب الرياح . ولـم يأت دور الضبـط الاداري والعقلاني الا في مرحلة متأخرة .

وهناك ظاهرة من هذا النوع نفسه لعبت دورا رئيسيا عند نشأة الاديان وتطورها ، وينطبـق الامر خاصـة على الديانة المسيحية التي كانت ولا تزال أعظم أحداث الحضارة البشرية ، فقد اقتربت الحضارة مع تلك الديانة مما هو « الهي » ، وتقول الاسطورة اليهودية ان الله تدخل بذاته على طور سيناء ليعرّف موسى الى الوصايا التي أحب ان يرى اليهود ، « شعبـه المختـار » يتقيـدون بها . ويرى التاريخ المسيحي بان يسوع ، ابن الله ، قد تجسد بشكـل عجائبي ، وأحب ان يتألم ويموت لكـي يخلص الانسانيـة الخاطئة ، وليكمل ويحسن شريعة موسى ، ولينشر في العالم قواعد المحبة والرحمة ، وليرفع المتواضعين والبسطاء والودعاء . لكن كل هذه التأكيدات كلام فارغ ، فموسى لم يقابل يهوه أبدا على طور سيناء ، ويسوع لا نكاد نفقه شيئا عنه سوى انه جاء الى هذه الدنيا فبشّر ، ودرّب رسـلا متحمسين ، وكرز بأسمى الاقوال على الصعيد الديني ، وطبق ما قال به فحكم عليه بالموت على ما قاله . وفي هـذا المجال لم يتخطه ، ولن يتخطاه أحد البتة ، لكنـه ليس بوسعنا ان نصدّق شجرة العائلة المصطنعة التي اخترعت

عن سلالته ، ولا نسلّم بالعجائب التي قام بها ، ولا بتلك القيامة التي أكدتها مريم المجدلية تأكيدا مستهاما أمام قبره الخالي ، ولا بتفاصيل ظهوره الاسطورية وصعوده الى السماء . فيسوع هو بالذات نموذج لما هو ديني غريزي وحدسي . فهو يشعر ، ويعبر ، ويدرب ، ولا يبرهن ، وليس عالما ، ولا لاهوتيا ، ولا فيلسوفا ، وهو لم يقدم لنا نفسه كاله . « انه انسان خارق » . وما الكنيسة سوى تجمع ساذج لبعض الرسل الذين شعروا بما شعر ، وعاشوا بوحدة في ما بينهم ، واتحدوا بذكراه . ولكن من أين كان للمسيحية ان تنمو اذن وتتطور في آن معا ، كعقيدة لاهوتية ــ فلسفية ، وكتجمع سياسي ــ ديني أصبح له استمرار وقوة بالفين ؟ ان رينان يشرح ذلك في سلسلة مؤلفاته الخالدة حول **أصول المسيحية** ، ويرى ان القديس بولس هو الذي اطلق ذلك الدين . فهو لم يقبل لحرارة ايمانه ، وقوة تفكيره ، ان يبقى دين يسوع شيعة يهودية سطحية . فقد سعى جهده ليبشر به الاوثان المشركين ، واليهود المختونين ، وغير المختونين . وقد حمل لواء ذلك الدين من مدينة الى مدينة ، واسس الكنائس المحلية ، ووضع في رسائله ما يجب ان تكون عليه العقائد لكي تكون مسيحية ، والح على ان تستعمل الكنائس التعابير ذاتها ، وتمارس الاحتفالات ذاتها ، فأرسى بعمله هذا أسس مذهب وتنظيم عقلانيين ، وبفضل الجهد المكثف لاولئك الذين اكملوا هذا العمل من بعده فتجمعوا بشكل افضل لمقاومة الاضطهادات

التي بدأت في عهد نيرون ، وحرروا الاناجيل لكي لا يضيع كلام المعلم ، وأخذوا عن الفلسفة اليونانية واللاتينية الحجج المنطقية التي يمكن استعمالهـا للاجابـة على اعتراضـات المعترضين ولدعم الايمان ، وطرحوا الافكار المجنونة التـي قال بها الغنوصيون والجبليون ، وخضعوا طوعا لسلطـة الكهنة والاساقفة وبشكل رئيسي لاسقف روما الذي أصبح في ما بعد البابا ، بفضل كل ذلك رأينا انتصار هذا الدين العظيم الذي لا يحوي سوى النزر اليسير من أقوال الانجيل، والذي تتألف منه العقيدة الكاثوليكية التي أكدتها المجامع المسكونية وناقشها الآباء ، الى جانب مجموعة المؤسسات التربوية التي جعلت من الكثلكة آلة عجيبة أنجبت المسيحيين في الغرب ، ونفحتهم بنسمة الحياة لقرون وقرون ، وقـد وقعت تلك الروح المسيحية على غريزة دينية ساذجة يبدو ان تحليلات مصطنعة دقيقة دعمتها في غالب الاحيان .

تلك ملاحظة هامة توهم البعض فعلا ان حضارتنـا الغربية التي ولدت حول البحر المتوسط ، وشعت فيمـا بعد على العالم كله ، لم تستطع ان تصبح كذلك لولا تدخل الهي ، ورعاية خاصة من العناية الالهية التي توزع توزيعا عجيبا البعثات الى الشعوب بين حـين وآخـر . وينخدع هؤلاء ، فهناك ، كما في أي مكان آخر في التاريخ ، يتم مثل ذلك بطريقة طبيعية ، ويكون عن طريق الغريزة ذاتها التي تسير الامور ، وعن طريق التفكير العقلاني الذي ينتقدها ، ويعدّلها ، ويضعها في اطارها الصحيح .

ويسهل علينا بالفعل تفسير الحضارة الغربية ، فقد تطورت بدون عجائب عند ملتقى حضارتين سابقتين : الحضارة اليهودية ، والحضارة الهلينية . فقد غرست الاولى بزور التدين الروحاني لدى الشعوب ، واشتهرت الثانية ، دون سواها ، بأعمال نقدية وعقلانية صرف . وتلاقت هاتان الحضارتان وتفاعلتا ، ومن ثم اندمجتا . ولكن المعتقدات الدينية البعيدة المرمى كانت غريزية محض . ولم تكن الحاجات العقلانية للعالم الاغريقي أقل من ذلك، من هنا كانت التأثيرات المتبادلة عظيمة ، فانطلقت منها المحاولات المعروفة التي توالت منذ عصور وعصور لتقوم باجراء تركيبي حاسم للرؤى الدينية المرتبطة باليهودية ، وبالتحليلات العقلية الهلينية ، فالى هذا الجهد تدين العقيدة الكاثوليكية التي اختصرتها في القرن الثالث خلاصة القديس توما الاكويني التي اعتبرت في وقت من الاوقات كعلم نهائي . أما التنظيم الاجتماعي والسياسي الذي يناسب تلك العقيدة ، والذي ظهر وكأنه النظام السوي الوحيد الذي يناسب رخاء النوع البشري ، فهو ممل تركيبي حاسم للرؤى الدينية المرتبطة باليهودية ، يمكن جمع الماء والنار ، ولا جمع المذهب اليهودي الروحاني والمذهب العقلاني الوثني في آن واحد ، فالواحد يقضي على الآخر ، وعلينا أن نتهيأ لرؤية المذهب العقلاني يحل نهائيا محل العناصر اليهودية التي كنا نأمل ان نمزجها به . وعلى هذا المذهب ، بعكس ما هي الحال في اي مكان آخر ، تترك

القوانين الطبيعية آثارهـا . فمهما تكن الغريزة الدينيـة شاعرية ورائعة المنتجـات هل تقوى على الصمود أمـام الملاحظة والتجريب والنقد ؟

ما من شك في ذلك لان فكر رينان يتجلى جلاء فريدا بصفائه ، وقوله ، حول هذه النقاط .

ب) وكذلك القول في كل مرة يتكلم فيها رينان دون دعابة عن كل ما يمس مشاكل تلك الفلسفة العملية التي تعني بالاخلاق والسياسة ، وبفرنسـا ولغتهـا ، وفكرها ومصيرهـا .

وليس رينان مفكرا انقطع عن العالم كليا وقبع داخل غرفة محكمة الاغلاق ، فهو وان لم يأخذ على كاهله قسطا مباشرا من حياة بلاده ، فقد فكر بالقيام بذلك القسط . لقد قدّم ترشيحه للانتخابات في سان ـ أي ـ مارن ،وتطلع لنيل كرسي في مجلس الشيوخ فلم يحالفه الحظ ، وقـد شعر بصدمة قوية من جراء الاحداث الاجتماعية والسياسية التي شهدها ، وانفعل مرة بعد أخرى ، فعرف آلامالسنوات ١٨٤٨ ، و١٨٥١ و١٨٧٠ ـ ١٨٧١ . ولم يكن عمره سنـة ١٨٤٨ سوى ٢٥ سنة فقط ، أما في سنة ١٨٥١ فكان قد أصبح بالغا ، وبعد سنة ١٨٧١ كان على وشك ان يعبر عن امانيه الثورية ، لكن تفكيره لم يتغير تغيرا جذريا ، بل تطور تطورا عاديا بفعل تجارب الحياة .

ويتساءل رينان ، أي هدف ينبغي ان يكون للحياة ؟

حول هذه المعضلة لم يغير رينان رأيه أبدا ، فهو يكرر القول نفسه في شبابه كما في شيخوخته . فروعة الكون ، برأيه ، هي تلك العملية التي يتحقق الله فيها على الارض ، هي ذلك « العمل الالهي » الذي أوضحنا القصد منه . فالمرء لا يتمم مصيره السوي اذن الا بقدر ما يجعل كل الامور الالهية تسهم في الارتقاء الى عالم الحقيقة ، والجمال ، والعدالة ، والصلاح البشري . فقد كتب يقول : « اما بالنسبة لنا نحن المثاليين ، فهناك مذهب صحيح هو المذهب التصوري ـ المثالي الذي يرى ان هدف الانسانية هو تكوين وعي أعلى ، أو كما قيل قديما ، تحقيق مجد الله الاعظم » . فالمرء الذي لا يحلم الا باشباع حاجاته وأهوائه ، ولا يسعى الا الى الملذات الخسيسة ، هو اذن انسان تخلى عن الانسانية ، وهو في النهاية انسان يحسب لنفسه حسابا سيئا ، فاكتساب ما هو ضروري للحياة أمر لا غنى عنه بلا ريب . فيجب الا نرى في هذه الحياة سوى أمر لا غنى عنه لتفتح قدراتنا العليا ، فبهذه القدرات نسهم في القيام « بعمل خالد » .

ولكن رينان حين استخلص تلك الحقيقة الجوهرية اخذ يلاحظ تلك الامور بانفعال منذ سنة ١٨٤٨ . فالانسانية تقدم لنا مشهدا أليما للغاية ، لانه ليس للناس الاوقات الكافية لينصرفوا الى المشاغل الضرورية لخيرهم بالذات ،

وخير البشرية فقط ، ولا لان القسم الاعظم منهم ينوء تحت مهام مادية وضيعة ولا يستطيع القيام بشيء سوى التفرغ لضرورات النفقات المضنية ، بل لان هناك آلافا منهم ليس لهم ما يشبعون به حاجاتهم الاولية التي تتعلق بها حياتهم ، وهي حاجات اذا لم تسد لا يمكن اشباع الحاجات الفكرية العليا ، او بالاحرى لا يمكنهم التفكير بها ، انه لمشهد رهيب يحاول رينان ازاءه ايجاد تعزية بسيطة في الاستسلام للتفكير الفلسفي العميق . وفي وقفته الخالدة أمام تلك المقبرة البريتانية التي ترتاح فيها رفات العديد من الرجال والنساء الذين ماتوا دون ان يعرفوا شيئا عما يعطي الحياة قيمتها الحقة ، يحاول رينان ان يقنع نفسه ويقنعنا معه بأن اولئك الرجال والنساء لم يعيشوا عبثا كعمال مجهولين ، بل عاشوا منتجين في حقل البشرية العظيم . ولكن ما القول عن اولئك الذين بقوا على ما هم عليه من بؤس ، وعن اولئك العمال الضئيلي الاجر ، وعن العديد من النساء الفتيات اللواتي أكرهن على التفتيش في البغاء عن ضروريات عيش لا يمكنهن الاستغناء عنها ، وعن تلك العاجزات اللواتي ما زلن يكددن ليحصلن على « غرشين في اليوم » ، وعن تلك المجموعات البشرية المعذبة التي يدفعها البؤس الى الثورة ؟

ويرسل رينان نظرة ثاقبة فيصرح بأنه يوم قام اشتراكيو سنة ١٨٤٨ بالاعلان عن حركة اصلاح في المجتمع كانوا على حق . فقسط وافر من البشرية يتخبط في خضم من العذاب . لقد قيل : « جميع الناس يحيون من النزر

اليسير » ، لكن هذا الكلام ينبغي تحويره وتعديله تعديلا علميا . فقد كتب رينان الى اخته هنرييت يقول : « اليس من المخيف ان تكون غالبية الناس محرومة من الملذات الذهنية والاخلاقية ، وان تكون مدفوعة الى الفسق ، والفجور ، والفوضى ؟ » .

اما اذا كان الهدف الذي نسعى اليه واضحا ، فماذا بمكننا القول عن الوسائل المستخدمة ، أو التي يوصي باستخدامها ؟

ويشعر رينان بغضب شديد على انتفاضة سنة ١٨٤٨، أما الاعمال القاسية التي استخدمت لقمعها فهي اعمال رهيبة ، الا انه لم يكن بالامكان تفادي ذلك القمع . « انه لويل عظيم ان تقوم تلك الانتفاضة ، ولكن ما كان اشد ويلا وأدهى ، هو ان تنتصر » . ويدين رينان ادانة قاسية اولئك الذين قاموا بتلك المأساة المفجعة ، ويدين نظرياتهم .

ان اصلاحات الاشتراكيين صبيانية ، ولعلهم هيأوا من بعيد حلا للمعضلة ، لكن حلا كهذا لا يمكن ان يكتشف في غرفة امام ورقة ! فالبشرية الغريزية ستقوم في المستقبل بما قامت به في الماضي ، وستجد توازنا لائقا بها في اجراءات لا تربطها علاقة بأي نظام سياسي مدروس . فهناك مسائل تستنفد وتحل بقوة الاشياء ، واذا زينت لنا انفسنا ان نتدخل باكرا باجراءات عقلانية ، فلن يكون تدخلنا الا تأخيرا لحل تلك المشاكل .

ويقول رينان : « اما الشيوعية ، فأنا لا اراها امرا مستحيلا فقط ، بل ضرب من الجنون ، أو بتعبير افضل صرعة خيالية » . ويردف قائلا : « اني ارى الملكية امرا أساسيا ملازما للانسانية ، حتى انني لا أتصور تبدلها . اما التبدل فانني اتخيله في كل ما تبقى ، في الدين ، والفلسفة والاخلاق الى حد ما . »

لكن ثمة أمرا يثير غضبه بشكل خاص ، هو « سخافة الانتخاب العام الكبرى » . « فمنح البشرية حقا تشريعيا كهذا يجب ان يكون هدف كل حكومة .. لكن اعطاءها هذا الحق قبل الاوان هو ضرب من الجنون ، وستتحمل نتائجه المؤسفة » . وهذا موضوع أساسي يعود اليه رينان بالحاح متزايد ، حتى انه كان يظن ان الاقتراع العام هو المسؤول عما جرى بعد سنة ١٨٥١ ، لانه سهل بواسطة الاستفتاء الشعبي قيام الانقلاب وكل ما جرّ اليه من نتائج مفجعة . فالديمقراطية التي يشكل الاقتراع العام أساسها هي في نظر كل عقلاني واع ، وكل مفكر علمي حقيقي ، أحد أسوأ النقائض الممكنة بين الحكومات . وبالفعل ، فان مبدأ الديمقراطيات يقوم على ان الاغلبية يجب ان تقرر الاجراءات التي ينبغي اتخاذها ، واختيار الناس الذين يجب ان يكلفوا بتلك الاجراءات ، لكن « التفكير يدلنا بان العقل ليس تعبيرا بسيطا عن أفكار المجموعة وامنياتها ، بل هو نتيجة ادراكات متميزة لدى نفر قليل من النخبة » والناس على دين ملوكهم

فهم اشبه بكاليبان (١) الفظ ، والسكير ، والجاهل ، والساذج والمتيم . والشعب يتذمر بمرارة لانه « مستغل » ، فهو يصرخ ويخبط خبط عشواء في انتفاضات هدامة فعلا . فهل بوسع انسان ، وضعه كوضع كاليبان ، ان يقيّم ما هو صالح ، وعلى الاخص ما هو صالح بالنسبة للجميع ؟ « ان الخطيئة الاصلية في كل مؤسسة ديمقراطية هي تلك التراجعات التي يجبر المرء عليها تحت وطأة الفكر السطحي لدى الجماهير » .

من هنا نخرج بسلسلة طويلة من الاستنتاجات المضنية . « فأحد أسوأ نتائج الديمقراطية ، هو جعل الشيء العام فريسة لطبقة من السياسيين التافهين والحساد ، الذين لا احترام لهم بالطبع لدى الجماهير التي ترى مندوبها اليوم مهانا بالامس امامها ، والتي تعرف الالاعيب التي انطلت عليها يوم الانتخاب » وبالفعل « اذا ما طبق الانتخاب العام في اختيار النواب ، فانه لا يؤدي ابدا ، ما دام انتخابا مباشرا ، الا الى اختيارات سيئة . ويستحيل علينا ان نختار من طريق ذلك الانتخاب مجلسا أعلى ، أو مجلسا قضائيا ، ولا حتى مجلس مقاطعة ، او بلدية يكون صالحا . ولكون الانتخاب العام محدودا بشكل أساسي ، فهو لا

---

(١) كاليبان هو احدى الشخصيات المسرحية عند شكسبير .
« المترجم »

يتضمن ضرورة التحلي بالعلم ، وتفوق النبل والبراعة » .
وينتج عن ذلك ما يلي :

١ ــ **الفوضى** : « لا يهذب الانسان نفسه ، ولا ينال الطلاب قسطا من التربية اذا ما جلسوا مع بعضهم بدون معلم يلعبون ويضيعون وقتهم ، كذلك لا يمكن ان ينبثق عن الجمهور تعقل كاف لحكم الشعب واصلاحه » .

٢ ــ **الضعف** : « ان مجتمعا جمهوريا هو في مثـل ضعف هيئة مسلحة هي التي تعين ضباطها ، فخوف المرء بألا ينتخب من جديد يشل كل حيويته ونشاطه » .

٣ ــ **عدم الثبات** : حلم ديمقراطيتنا هو « بيت من الرمال ، ووطن بلا مؤسسات تقليدية .. وطن مبني على ذلك المبدأ المقيت الذي يرى بان الجيل الحالي ليس مسؤولا عن الجيل الذي سيأتي بعده ، على أساس انه لا يوجد أية علاقة بين الموتى والاحياء ، وأية ثقة بالمستقبل » .

فكيف ندهش لكل ذلك ؟ « لعل من غير الطبيعي أن نتمثل وسيلة ذهنية ، تكاد تصل الى مستوى وسيلة انسان جاهل ومحدود ، بهيئة حكومية مستنيرة شهيرة وقوية » . هنا يكمن الخطأ الرهيب في مذهب المساواة المنهجي لانه لا يقوم على مساواة جسدية ، ولا على مساواة ذهنية ، ولا على مساواة اخلاقية ، وغض الطرف عن هذه الحقيقة هو ضرب من الجنون .

فما العمل اذاً ؟ ان رينان يرفض ان يكــون الموقف ميؤوسا منه لثلاثة اعتبارات :

الاعتبار الاول : لمعرفــة السبب الذي يولــد بؤس البشرية اليوم ، وهو سبب لا يختلف كثيرا عن ذلك السبب الذي دفع الناس قديما للاستشهاد ، فهو يتعلق بوجــود طائفة من البرابرة بين الناس، هم برابرة الماضي الذين هدموا الحضارة الرومانية البديعة وقضوا على السلام الذي خيم فوق ربوعها . أما أبناء اليوم الذين يهددون السلام بدورهم: السلام الداخلي ، والسلام الخارجي ، فيجدر بهم اصلاح أنفسهم الطائشة والشريرة .

الاعتبار الثاني : لان وسائل بلوغ هذا الهدف ليست بعيدة عن متناولنا ، لذلك ينبغي التأكيد على ان يوفر لكل فرد وضع مادي يمكن أن يرضيه ، لكن جوهر الامر ليس هنا ، فما يقضي على بربرية الناس هو التربية : التربيــة الفكرية ، والتربية الاخلاقية . فهما كما يعتقد رينان، وثيقا الصلة . هناك ربما تربية أخلاقيــة يمكن تحقيقهــا خارج التربية الفكرية ، ولكنها لا يمكن ان تكون راسخة الاسس ، الا اذا كونت التربية الفكرية عقولا ناقدة ، متبصرة ، قائمة على استقامة الفكر التي تبرر استقامة الاخلاق .

الاعتبار الثالث : لان المرء يتساءل عما اذا كانت التربية الفكرية والاخلاقية التي تحررنا من البربرية ما تزال محرمة

على من ينوؤون تحت نير العمل اليدوي . ان رينان ، كما رأينا سابقا ، لا يعتقد هذا الاعتقاد . فالعلم أوجد الآلات الضرورية لتقدّم للجميع ضروريات الحياة بسعر زهيد . فلماذا لا يهتم كل فرد بتخصيص عدد معين من الساعات للاهتمام بتلك الآلات بالذات التي ستكون عبيد البشرية المقبلة ووسيلة تحررها ؟

فاذا ما التزمنا التزاما قاطعا بهذا المخطط سيحالفنا الحظ في ان نرى بالنهاية « كليبانا » مستنيرا وعاقلا بفضل ذلك المخطط ، وعندئذ تصبح الديمقراطية ممكنة ، ويمكن التساهل معها اكثر من أيام رينان .

ولكن قبل مجيء هذه اللحظة التي نتمناها ، يجب ان نوفر للعالم ، بشكل مؤقت ، أمرا آخر هو حكومة مستنيرة تعرف كيف تحكم .

لذلك فان أقصى ما يتمناه رينان هو « قيام حكومة علم يعالج فيها رجال اخصائيون اكفاء المسائل الحكومية وكأنها مسائل علمية ، فيبحثون بطريقة عقلانية عن حل لها . » لكن هذا طموح صعب التحقيق يشعر به رينان بشكل خاص في تلك اللحظة الاليمة التي كانت تتساءل فيها فرنسا التي فقدت توازنها بعد فترة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ عما اذا كان عليها ان تصوّت لدستور ملكي ، او لدستور جمهوري ، وقد تناول رينان ريشته وكتب كلمته .

ويرغب رينان في قيام حكم ملكي دستوري يكـــون دستوره عقلانيا حقا .

فالملك في بلد ما ليس قطعة من الموبيليا لا نفع لها ، فوجوده يؤمن استمرارية لا يمكن للمجتمعات ان تتملص منها أبدا ، ولكن ينبغي ان تكون سلطته محـدودة ، ومراقبـة مراقبة دقيقة ، ولذلك ينادي رينان بانشاء مجلسين ، وهو لا يريد بأي ثمن ذلك الاقتراع العام **المباشر** ، الذي اظهرت حوادث سنة ١٨٤٨ مساوئه المفجعة . وهو يرغب في ان ينتخب مجلس النواب عن طريق الاقتراع على درجتين ، ويرغب في الا يصوّت النساء والاطفال في الاقتراع ، وان يكون مجلس الشيوخ مؤلفا من ٣٦٠ عضوا، ٣٠ بينهم ينبغي ان يكونوا من ذوي المناصب الوراثية ، و ٨٠ اعضاء ثابتين، و ٥٠ يختارهم رئيس الدولـة ، و ٣٠ يختارهم المجلس بنفسه ، وما تبقى يجب ان يمثل الهيئات الوطنية والوظائف الاجتماعية : الجيش ، البحريـة ، الهيئـة التعليمية ، الاكليروس ، المؤسسات ، التجمعـات الصناعيـة وغرف التجارة والمـدن الكبرى ، فنحصل بذلـك على ثروة مـن الكفاءات الذكية .

يقول رينان : « هناك مجال للتفاؤل بأن المجلسين ، اذا ما شكّلا على هذا النحو ، سيخدمان التقـدم الحر لا الثورة . » ولكـن ينبغي اتخـاذ بعض احتياطات منهـا : الغاء المنابر ، ومنع علنيـة الجلسات لتجنب الاحاديـث

الديماغوجية الفارغة . أما شؤون الدولة فيجب أن تبحث بين رجال اكفاء يتناقشون في ما بينهم ، ويتفقون من خلال أبحاث بسيطة ، ونقاشات هادئة ، وما هذه الاجراءات الا لتفادي سيطرة القوة العنيفة وغير الشرعية على الدولة . اما في ما تبقى فيجب انتهاج سياسة ليبرالية واسعة ، الى جانب تقليص تدخل الدولة الى أدنى حد ممكن .

ولا يطالب رينان بحرية الصحافة فقط ، بل بحرية التعليم الديني أيضا . وهو لا يطلب هنا سوى أمر واحد : ان تنظيم مراحل التعليم الثلاث : المرحلة الابتدائية ، والثانوية ، والعالية بغية تنمية الفكر النقدي الذي يقدم لكل فرد الشعور بقيمة العلم ، وبأهمية النتائج التي اكتسبها ، وبكثرة الامور التي يجهلها ، وبأمل مشروع ايضا بالقضاء على أخطر تلك الامور على الاقل ، ان لم نقل بالغائها جميعا.

« على المرء ألا يتفاءل كثيرا ، أو يتشاءم كثيرا . »

هذا ما يجب ان يكون شعار المذهب الليبرالي الذكي ، وهو مذهب أملى على رينان الموقف الذي اتخذه من الادعاءات الجرمانية غداة الانهزامات الفرنسية سنة ١٨٧٠ .

وكان لرينان شعور بأنه مدين بالكثير للثقافة الالمانية ، واعتقد انه سيجد في المانيا ما لم يكن يقع عليه في فرنسا : فلسفة يسيطر عليها الحس والاهتمام الديني بالاخلاق ، ورصانة في البحث العلمي العميق كانت تبدو له رائعة ، وذكاء في فهم صيرورة العالم والعمل الصامت الذي

ينمي فيه وعيا لذاته يتكامل باستمرار . وقد شعر رينان بتأثره بمشاعر فخته ، وبتسرب افكار هيغل الى رأسه ، فحلم بحضارة تتكامل في النهاية عن طريق اتفاق تام بين العمال الالمان والباحثين الفرنسيين المستنيرين . وعلى هذا الوجه جاءت حرب سنة ١٨٧٠ ، والتعليقات التي آثارتها في دنيا الفلاسفة الجرمانيين لتهدم الاحلام الغالية على قلبه، ولتكشف الغشاوة عن عينيه ، لا لان حرب سنة ١٨٧٠ قد نشبت بقصد شرير ، وبفظاظة تثير الشكوك ، ولا لان الجنود والضباط يضارعونها فظاظة ورسوخا في الذهن ، بل لان المنظرين الجرمان ادعوا تغطية هذه البضاعة بجناح الفلسفة فقد رايناهم يطورون نظرية قومية تقول بتفوق العرق الالماني على بقية الاعراق جميعا ، ورأيناهم يؤكدون بأنه حيث يتكلم الناس الالمانية يجب ان يكونوا المانا ، ورأيناهم يبنون على هذا ادعاءات تهدف الى سيطرة جرمانية هي شرط برأيهم لبلوغ ذروة الثقافة الانسانية .

وقد دفعت تلك الادعاءات رينان الى الكلام فعرف كيف يرد على المنظرين الالمان ردا تناسوه مرة ثانية وثالثة ، سنة ١٩١٤ ، وسنة ١٩٣٩ .

« ان اعظم أخطاء بروسيا هو صلفها » . فما يريد ممثلوها هو « قيام الاصل الجرماني بعمل شامل يجدد اوروبا ويسيطر عليها » . ولكن « للالماني الحق بوطن كبقية الناس ، وليس له الحق في سيطرة تفوق سيطرة باقي

الناس . » اما الحجج التي يوردها ليظهر بمظهر المحق فهي اقوال سفسطائية محض .

فلا يمكننا تحديد القومية بمفاهيم عرقية ولغوية ، ويكفي ان نراقب سويسرا لنتأكد من هذا الكلام ، فالامة « هي قبل كل شيء روح ، وفكر ، وعائلة روحية لها من الماضي الذكريات المشتركة ، والامجاد المشتركة ، والفواجع المشتركة أحيانا ، لان الفاجعة تجمع القلوب كما يجمعها المجد . . ولها من الحاضر ارادة العيش المشترك ، وبتعبير آخر ، لا تتكون الامة بمجرد تداول الناس لغة واحدة ، بل بالشعور الذي كوّنوه معا عن القضايا الكبرى في الماضي ، والتي يودون القيام بها أيضا في المستقبل » . فما هو اساس للحجة الالمانية حول هذه النقطة هو اذن خطأ سيكولوجي خطير ومستهجن .

لكن البعض يقولون : « لنا حقوق تاريخية » ويضيفون : « الالزاس هي ارض جرمانية انتزعت بغير حق من الامبراطورية الالمانية . » وهو تصور غريب ، ونكاد نقول لهم « حيث يطالب الوطنيون الالمان الهوج بحق جرماني بوسعنا ان نطالب بحق سلتي سابق ، وحتى قبل العهد السلتي كان هناك ، كما يقال ، الالوفيليون ، والفينيون ، واللابونيون ، وقبل اللابونيين كان هناك جماعة المغاور وقبلهم كان انسان الغاب ، وفي كنف فلسفة تاريخية كهذه

لن يكون في العالم حق شرعي الا حق أهل الغـاب الذيـن حرموا بغير حق، من املاكهم عن طريق خديعة الحضر لهم».

اما ادعاؤهم بانهم وضعوا الحقوق الالمانية على تفوق عرقي ، فان ادعاء « الفاندال » المتبجح هو ادعاء سخيف ، فمن المؤكد بالطبع ان في العالم اعراقا متعددة جدا تبـدو غير قادرة على ان ترتفع الى حضارة عليا ، ولكن الادعاء بأنه يوجد في اوروبا المعاصرة ، التي هي ثمرة قرون من الثقافة ، تفوق عرق على عرق آخر ، فذلك امر مضحك للغاية ، حتى ان الواحد منا يهزأ من هذا الكلام . فالامم الاوروبية ، كما كوّنها التاريخ هي اعيان في مجلس شيوخ كبير يتمتع كـل عضو فيه بكامل العضوية . فلا نذهبن اذاً بعيدا في البحث عن علم عرقي على هوانا نبرز به سياسة التخليد .

وينتهي رينان الى القـول : « العرق الذي يقول : الحضارة هي من صنع يدي ، والفكر البشري هو فكـري الذاتي ، هو عرق يجدّف على البشرية . » فليس هناك ربما ، ما هو افضل من الانسان الالماني صاحب الاخـلاق الرفيعة . لكن التجربة اثبتت لرينان ، واثبتت لنا بأن ليس هناك ما هو « اسوأ من الالماني الذي فقد اخلاقه » .

كذلك فان ترهات الفلاسفة الالمان تلك،ليس لها سوى هدف واحد هو ارهاق فرنسا والفكر الفرنسي . ولكـن الحضارة والفكر هما في نظر رينان أمران مقدسان لما أدياه من خدمات جليلة للبشرية .

وقد أوجدت عبقرية الفرنسي لغة فريدة في العالم . فكل شيء يصبح واضحا حين نرجمه الى قالبه ، وفقا لقواعد النحو فلا يمكننا التفكير دون ان نرى أنفسنا مجبرين على معرفة ما نقول . فهذه اللغة تظهر سخافة ما هو سخيف ، وتكشح الغيوم التي تختبىء فيها العقول المظلمة ، وتزيل الالتباس وسوء الفهم .

ولذلك كانت اللغة الفرنسية منذ القرن السادس عشر ناقلة الوضوح في العلوم وفي الحياة ، وعبرت أقوى تعبير عن ضرورة الحرية التي هي اول نعم الانسان ، حرية الفكر، والتملك ، والعمل . ان لغة من هذا الطراز يجب ان تظل كذلك ، ولغة فرنسا سوف توالي الدعاية لافكارنا ، فآلامنا وشهداؤنا لن يشلوا عملها .

« ان شيئا جوهريا سيفتقده العالم يوم يتوقف ذلك المشعل النير المتأجج العظيم عن الاشعاع والتألق . وقد يخفت وهج البشرية اذا احتجبت هذه الاداة الحضارية العجيبة ، أو ذبلت . »

٤ ــ رابعـا

تلك هي أهم الاسس التي قامت عليها فلسفة رينان . ولكن ما وراء كل فلسفة ، ورينان يعرف ذلك أكثر من سواه ، يختبىء طبع من يعرف قيمتها . فبعض الذين

يفكرون في المطلق يسلمون بمبادىء يقولون انها بديهيــة ، وكونية ، ويزدرون بمبادىء الآخريــن . وبعض المفكريــن الآخرين القصيري النظر يرون جانبا من الامور ، ولكنه جانب واحد ، الا أنهم يدركون انه قد يكون لتلك الامور جانب آخر . وبعض المفكرين الذيــن غشي على بصائرهم ينتشــون من الكلمات ، ويعتقدون بأنهم يعرفون كل شيء حتى ما هــو فوق طاقات الفكر البشري وقدرته على البرهان ، ولكننــا لا نرى شيئا من هذا القبيل عند رينان ، فهو يدوّن اشكال الظواهر المتعددة ، ويلاحظ ان « مناطق دماغه » لها في ما بينها « محادثات مدهشة » فهو يتساءل عما اذا كان ذلك لا يفسّر عن طريق الفكرة العرقية التي تجعل منه « سلتيا ممزوجا بفسكوني ، ومهجنا مدموجا بلابوني » .

لن نذهب الى هذا الحد ، ولكــن لنلاحظ على الاقل استعداده لان يجلي بلــذة هازئــة بعض الاحتمالات التــي يعارضها . ولكونه مؤرخا مولعا بالحقيقة وحالما بريتانيــا عميق التدين ، وخريجــا من خريجي سان ـ سولبيس ، ومفكرا انسانيا ، فقد ثار على عدم المساواة الاجتماعية ، مع انه وعى المخاطر التي تشيعها الجماهير الفظة في المجتمع والحضارة . لقد راقب العالم ونفسه بعينين مليئتين بالدمع حينا ، ومتأججتين بالخبث أحيانا وبالرغم من كل ما شاهد بقيت نفسه متفائلة مقدامة . ألم نره يشكر السماء شكرا خاصا لانه جاء هذا العالم في زمن جدير بالاهتمام أكثر مــن بقية الازمنة .

مؤلفاته

لقد ترك رينان مؤلفات هائلة كان مضمونها مثار نقاش عند البعض ، لكن قيمتها الشكلية لم تكن كذلك . يرى رينان جيدا ان « الحديث عن الموهبة كلام صبياني» ، وانه « اذا كانت البشرية تتمتع بكامل عقلها فهي ستكتفي بالحقيقة » ، وعلينا ان نزخرف لها الامر بالوجه الذي هي عليه ، لذلك اجتهد في السعي وراء تلك الزخرفة ، وعرف باكرا ان سبل الرومنسية ليست أفضل السبل ، فباحتكاكه بالعالم اليوناني وجد ضالته . الا اسمعه يقل : « ان الانطباع الذي أثارته في أثينا هو أعمق الانطباعات التي شعرت بها في حياتي ، فهناك مكان واحد يوجد فيه الكمال لا مكانان ، هو ها هنا ، فلم أكن أتصور مطلقا مكانا يماثله.» من هنا كانت **صلاته الشهيرة في الاكروبول** ، والحكمة المأثورة التي تنم من ذلك كله هي الحكمة القائلة : « لكي يدوم شيء ما يجب ان يكون صحيحا » ثم هذه القاعدة الاساسية

في النهج : « ان يكون امام المرء فقط ، الفكر الذي يسود اعتناقه ، وبالتالي ان يكون لديه فكر » . يطبق رينان هذه القاعدة في كل مكان ببراعة شديدة الامانة ، والدقة ، وعارية من الزخرف الذي لا لزوم له ، حتى ان المرء لا يرى في اسلوب دراماته الفلسفية الرائعة اثرا للتصنع .

ومؤلفات رينان كثيرة التنوع ، ولذلك نصنفها بعدة أصناف ، العديد منها تأملات تجمع مقالات ذات تواريخ مختلفة ظهرت في الجرائد والمجلات :

١ ـ مؤلفات فكرية بحت :

ـ تاريخ اللغات السامية العام ، الحائز على جائزة فولني لسنة ١٨٤٨ .

ـ نشيد الأناشيد .

ـ سفر الجامعة .

٢ ـ مؤلفات في علم الآثار :

بعثة أثرية في فينيقيا .

٣ ـ مؤلفات تاريخية :

ـ أصول المسيحية : حياة يسوع ، سنة ١٨٦٣ . أعمال الرسل ، سنة ١٨٦٦ . القديس بولس ،

سنة ١٨٦٩ . المسيح الدجال ، سنة ١٨٧٢ . الاناجيل ، سنة ١٨٧٨ . تاريخ الكنيسة المسيحية ، سنة ١٨٧٩ . مارك ـ أوريل ونهاية العالم القديم ، سنة ١٨٨١ .

ـ تاريخ بني اسرائيل ، في خمسة مجلدات ، بين سنة ١٨٨٧ ، وسنة ١٨٩٢ .

ـ دراسات في التاريخ الديني .

ـ دراسات جديدة في التاريخ الديني .

ـ متفرقات في التاريخ والرحلات .

ـ متفرقات دينية وتاريخية .

ـ دراسات حول السياسة الدينية ابان حكم فيليب لوبال .

٤ ـ مؤلفات فلسفية خاصة :

ـ ابن رشد والرشدية ، سنة ١٨٥٢ .

ـ مستقبل العلم (كتب سنة ١٨٤٩ ، ونشر سنة ١٨٨٨) .

ـ رسالة في الاخلاق والنقد .

ـ قضايا معاصرة .

ـ الاصلاح الفكري والاخلاقي في فرنسا، سنة ١٨٧٠

ـ اصل اللغة : التحرير الاول ، سنة ١٨٤٨ ، والتحرير الثاني ، سنة ١٨٥٨ .

ـ نقاشات ومقتطفات فلسفية ، الفت النقاشات ، سنة ١٨٧١ ، وتحمل المتفرقات تواريخ متفرقة، ورسالة بارتولو المؤرخة سنة ١٨٦٣ .

ـ الدرامات الفلسفية : كليبان ، سنة ١٨٧٨ ، ماء « جوفانس » ، سنة ١٨٧٠ ، كاهن «نامي » ، سنة ١٨٨٥ . رئيسة دير « جوار » ، سنة ١٨٨٦ .

٥ ـ مؤلفات المناسبات :

ـ ذكريات الحداثة والشباب ، سنة ١٨٨١ .

ـ اوراق متفرقة (يضم هذا المجلد في ما يضم محاضرة من اللغة الفرنسية سنة ١٨٨٧ ، وفحص ضمير فلسفي ، سنة ١٨٨٩) .

ـ أحاديث ومحاضرات .

٦ ـ مراسلات ومسرحيات ، نشرت بعد وفاته :

ـ رسائل الدير ، (١٨٣٨ ـ ١٨٤٦) .

ـ رسائل خاصة (مسبوقة بكراس عنوانه اختي هنرييت ، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٥) .

ـ رسائل خاصة جديدة (١٨٤٥ ـ ١٨٥٠) .

ـ رسائل الى اخيه الان (١٨٤٥ ـ ١٨٤٧) طبعة بليزو ، سنة ١٩٢٥ .

ـ دفاتر عهد الشباب (١٨٤٥ ـ ١٨٤٦) .

ـ دفاتر مهد الشباب الجديدة (١٨٤٦) .

٧ ـ بالاشتراك مع السيد فيكتور لوكلارك :

ـ تاريخ الادب الفرنسي في القرن الرابع عشر .

وقد نشر ميشال ليفي أول مؤلفات رينان ، ونشر كل الباقي تقريبا السيد كالمان ، خليفة ميشال ليفي في ادارة منشورات كالمان ـ ليفي . وكان رينان قد مدح الاثنين مدحا رائعا . [وحين صدرت هذه الدراسة بالفرنسية سنة ١٩٤٩] كانت قد باشرت دار كالمان ـ ليفي نشر اعماله الكاملة .

مختارات

الشك عند رينان

« لا تساورني الشكوك نتيجة عملية تفكير واحدة ، بلُ نتيجة عشرات الآلاف من العمليات . فالرأي السديد يقدم الاجابة على كل شيء ولا يدخل غمار معركة خاسرة ، والنقد الذاتي يسمى بالتأكيد لاعتماد الاجابة الحاذقة كاجابة مقبولة . وقد لا يكون الحقيقي احيانا هو الممكن الحدوث ، والاجابة الواحدة الحاذقة قد تكون صحيحة . ولعلُ اجابتين حاذقتين قد تكونان عند الاقتضاء صحيحتين في آن معا . وثلاث اجابات قد تكون أشد عسرا في صحتها (*) وتستحيل صحة أربع اجابات ، ولكن لدعم الفكرة نفسها يجدر بنا التسليم بصحة مشر ، او مئة ، او الف اجابة معا ، مما يدل على ان الفكرة ليست صائبة . اما حساب الاحتمالا ت المطبق على كل تلك الافلاسات الفكرية الصغيرة المفصلة فهو بالنسبة لفكر غير متحيز ذات اثر مرهق .

ولكن ديكارت علمني بأن الشرط الاول لايجاد الحقيقة هو عدم الالتزام المسبق بأي موقف . ان العين اللالونية هي العين الوحيدة التي خلقت لادراك الحقيقة في الاطار الفلسفي ، والسياسي ، والاخلاقي » .

ذكريات الحداثة والشباب
الجزء الخامس ، المجلد الثاني

فحص ضمير فلسفي

١ ـ اولا

ان اول واجب يقع على عاتق الانسان الصادق هو الا يقع تحت تأثير أفكاره الخاصة ، وان يتيح للواقع بأن يعكس نفسه عليه ، كما هي الحال داخل غرفة المصور السوداء ، وان يشاهد مشاهدة المتفرج تلك المعارك الداخلية التي تستسلم لها الافكار في أعماق ضميره . على المرء الا يتدخل في هذا العمل العفوي فيلتزم جانبا سلبيا ازاء التبدلات الداخلية في حدقته الذهنية ، لا لانه لا يبالي بنتيجة التطور اللاواعي ، ولا لان تلك النتيجة تؤدي حكما الى نتائج وخيمة ، بل لانه لا يحق للمرء ان يرغب في الامور حين يتكلم العقل . فعلى المرء أن يصغي ، ولا شيء سوى الاصغاء ، وان يتأهب للحاق بالركب مكبل الايدي والارجل ، سالكا مسلك الحجج الفضلى . فانتاج الحقيقة ظاهرة موضوعية غريبة عن الذات ، تحدث في داخلنا دون نوازعنا ،

وهي نوع من الترسب الكيميائي ليس لنا سوى مراقبته باهتمام . ويجدر بنا ان نتوقف بين وقت وآخر ، وان نرجع الى ذواتنا لنتأمل ، بطريقة من الطرق ، بحيث نرى ما هو التعديل الذي طرأ على الطريقة التي نواجه بها العالم ، وأي مسار في سلم الانطلاق من الاحتمال الى اليقين قدّر للمرء ان يسير بمقولات صاغ منها قاعدة لحياته .

وهناك شيء يخرج كليا عن نطاق الشك وهو ان في هذا الكون الذي يخضع لتجربتنا لم نلاحظ ، ولم يسبق لنا ان لاحظنا أي حدث عابر نتج عن ارادة معينة ، او عن ارادات اعلى من ارادة الانسان . ان التكوين العام للعالم يعج بالمقاصد الظاهرة على الاقل ، ولكن ليس ثمة شيء قصدي في الامور التفصيلية . ان ما يعزى الى الملائكة **والشياطين** ، والآلهة الخاصة والمحلية ، والكوكبية ، أو حتى ما يعزى الى اله وحيد ينطلق في عمله من ارادات خاصة ، ليس له اية حقيقة واقعة ، ولا يلاحظ شيء من هذا في زماننا . وهناك نصوص مكتوبة اذا ما حملت على محمل الجد فانها تجعلنا نعتقد بان ثمة وقائع مماثلة قد حدثت في الماضي ، ولكن النقد التاريخي يظهر امكانية ضئيلة في تصديق اخبار كهذه . واذا قيض لنظام من الارادات الخاصة في زمن معين أن يكون سنة العالم ، فقد يأمل المرء ان يرى بقية باقية ، أو اقتباسا قد اقتبس من ذلك النظام في ايامنا هذه . لكن العالم في حالته الراهنة لا يقدم أي دليل على حدث اتى من الخارج . ان العالم بوضعه الراهن هو حصيلة تطور لا ندرك

بدايته ، كما اننا لا نكتشف داخل هذه السلسلة عملا واحدا حرا قبل ظهور الانسان ، او ربما قبل ظهور الكائنات الحية . فمنذ ان ظهر الانسان قام سبب حر واستعمل قوى الطبيعة من اجل غايات معينة ، ولكن ذلك السبب بالذات صدر عن الطبيعة . انها الطبيعة وقد وجدت ذاتها ووصلت الى حالة الوعي . والشيء الذي لم يكشف عنه النقاب هو تدخل عامل علوي من أجل تصحيح ، أو توجيه القوى العمياء ، وهداية الانسان وتطويره ، والحؤول دون وقوع شر مستطير ، والتحذير من حدوث ظلامة معينة ، والتمهيد لتنفيذ مخطط معين . ولعل طابع الدقة المطلقة في عالم ندعوه ماديا لا يكفي لابعاد فكرة القصد ، لان ما هو قصدي ينكشف تقريبا بشكل دائم عن طريق خلوه مما هو هندسي ، او تقريبي .

وما أتينا على ذكره هنا ينطبق انطباقا أكيدا على كوكب الارض التي نعرف تاريخها تماما، بحيث انه لا تفتنا خاصية كبرى من نظامها . وبوسعنا ان نطبق هذا القول، دون تردد، على الشمس والنظام الشمسي بكامله ، وكلاهما لا يشكلان معنا نحن البشر سوى **كون** واحد صغير . وبوسعنا أن نطبق ذلك ايضا على مجمل النظام الفلكي الذي ينكشف لسكان الارض بفضل شفافية الهواء والفضاء (ملاحظة : هذا ما سأدعوه الكون في سياق هذه المقالة) . وبالرغم من المسافات التي تتخطى كل تصور ، وهي مسافات تفصل مختلف تلك

الاجسام عن بعضها البعض وعن عالمنا ، توصلنا الى ملاحظة قوامها ان فيزياء ، وميكانيك ، وكيمياء تلك الاجسام هي ذاتها فيزياء ، وميكانيك ، وكيمياء النظام الشمسي . وما من شك انها لا تخضع كالنظام الشمسي لقوانين تطور تكمن اسبابه في ذاته . على كل ، اذا كان الامر غير ذلك ، فان تقديم الحجج يقع على عاتق اولئك الذين يدعمون الراي المعاكس ، وبناء على هذا المبدأ الذي يجب الا نناقشه على انه ممكن ، وهذا ما لا يدعو أي مؤشر يحمل على التسليم به . فكل مؤشر ، مهما يكن باهتا ، يجب ان يتبعه علم دؤوب ، اما الاثبات الاعتباطي فليس بحاجة لدحض ، لان « ما يثبت اعتباطا ينفي اعتباطا » .

واذا كنا لا نرى فوقنا أثرا لذكاء يهدف الى غايات معينة فلن نرى أي أثر لذكاء مماثل تحتنا . فالنملة بالرغم من صغرها هي اشد ذكاء من الحصان . ولكن لو كان في النظام الجرثومي كائنات شديدة الذكاء لكان تبين لنا وجود اعمال نابهة صادرة عنها . ولكن عمل تلك الكائنات الصغيرة التي تكاد تكون سبب جميع الظواهر المرضية تقريبا هي في مستوى قلة من الناس ، بحيث انه استحدث علم متقدم جدا لادراك كنهها في وقت يكاد يمتزج عملها بالقوى الكيميائية والميكانيكية أيضا . ومن خلال تجربتنا ، المحدودة بالطبع ، يبدو الذكاء مقيدا بحدود ما هو نهائي ، فالعلوي والسفلي يغرقان في ليل مجهول .

بوسعنا اذن طرح فكرة تقول بان الصيرورة عن طريق التطور الداخلي ، دون تدخل خارجي ، هي قانون الكون الذي يقع تحت نظرنا بأسره . ويؤدي عدد الاجسام غير المحدود الى حدوث كل شيء ، وتبدو الاهداف المبلوغة صدفة كأنها بلغت عن عمد . وليس كوننا الخاضع للتجريب محكوما بأي عقل عاقل . والله كما يفهمه الرجل العامي ، الله الحي ، الله الفاعل ، الله العناية ، لا يظهر في هذا الكون ، والمسألة تكمن في معرفة ما اذا كان هذا الكون هو الوجود بكليته ، وهنا يبدأ الشك . والعقل الفعال الغائب عن الكون ، أليس موجودا في عالم آخر ؟

اننا نتساءل بادىء الامر ، هل هذا الكون لا نهائي ! وهل غبار الذهب المنتشر بغير تساو ، وهو غبار نشاهده فوق رؤوسنا في ليلة صافية الاديم ، يملأ لانهائي الفضاء ؟ وهل من المؤكد ان ليس ثمة محطات في الفضاء نشاهد منها العين : من جهة سماء مرصعة بالنجوم ، كهذه السماء التي نشاهدها ، ومن جهة أخرى لجة هي عبارة عن فراغ من كل جسم مضيء ؟ ان هذا الكون هائل بالطبع . ولكن ماذا تشكل عشرات الفراسخ ازاء ما هو لا نهائي ؟

وعندما يتأكد لنا ان الفضاء مليء بالشموس التي لا حدود لها ، أيتبع هذا التأكيد ان ليس هناك شموس أخرى لا نهائية من نوع أعلى او أدنى ؟ ان الحساب المتناهي لا يجري بالطبع الا على صيغ معينة ، ولكن هذه الصيغ هي

رموز ملفتة للنظر . هناك انواع متعددة من اللانهائي ، بحيث ان الانواع الدنيا هي لا شيء اذا قيست بالانواع العليا . وهذه المفارقة الظاهرة تستخدم كأساس لحسابات ذات صدق مطلق . وكل كمية متناهية تضاف الى اللانهائي ، او تحذف منه تساوي صفرا ، وكل كمية متناهية ليست شيئا في عرف اللانهاية . وافكارنا عن المكان والزمان هي افكار جد نسبية ، فالمسافة بين الارض والنجم المشع هي مسافة هائلة اذا ما قيست بمقاييسنا ، والفراغات داخل جزيء واحد قد تكون هي الاخرى هائلة في نظر كائنات تعتمد معيارا آخر للكبر . وقد يعادل عمر عالمنا طول يوم واحد في نظر احد الآلهة .

ويبدو كل شيء مركبا على هذا النحو من عوالم تكاد تكون موجودة في نظر بعضها البعض ، وتعتبر تلك العوالم بنظر بعضهم اللانهاية . ومن يعرف فرنسا على أحسن وجه يجهل ما يحدث في قلب آلاف الاحياء المركزية الصغيرة من مقاطعاتها . ومن يعرف احد تلك الاحياء الصغيرة لا يرى شيئا وراءه ، ويراه مؤلفا من احياء اشد صغرا أيضا لا يرى كل واحد منها سوى ذاته . وهناك عوالم تنطوي على عوالم اخرى ، فالمفرط في الصغر في نظر احدهم هو مفرط في الكبر في نظر آخر ، تلك هي الحقيقة . اما واقعنا (وهو الواقع الذي نحيا فيه وهو متناه في نظرنا) فهو مكون من لا متناهيات من نوع أدنى ، ويستخدم لامتناهيات أعلى . فواقعنا اللامتناهي في الكبر في نظر من

هو تحت هو لامتناه في الصغر بالنسبة لكل من هو فوق ، انه نقطة الوسط بين لامتناهيين .

اننا قليلا ما نرى نظام اللانهاية الذي يتخطانا : ولكن نظام اللانهاية الموجود تحتنا ، اي عالم الذرة والخلية ، وعالم الجرثومة المؤلفة من جراثيم هو ذو وجود اكيد كالنظام المتناهي الذي يشكل موضوع ابحاثنا وتأملاتنا العادي . ان كليشهات الذاكرة ، اي تلك الصور الصغيرة العديدة التي بوسعنا نفض الغبار عنها ، واحياؤها متى أردنا، تشغل داخل صندوق دماغنا العظمي مساحة محدودة جدا ، اما افراد الجيل الذين يكمن بعضهم داخل بعض ، كما يكمن زر الزهر في الزر ، فهم يشكلون مثالا آخر على مرونة المكان ، او انهم يشكلون بالاحرى مثالا على نسبيته . وقد تنطوي الذرة على عالم لامتناه ، فالفحم الطبيعي الذي يؤمن النار في مدافئنا هو حصيلة عوالم صغيرة مسخرة لعالمنا ، وقد نكون نحن ربما ذرة الكربون التي تؤمن الحرارة لعالم آخر . اننا لا نرى الله في هذا الكون ، وقد يكون الالحاد فيه ربما تابعا له ، ولعل المرء يكون ملحدا اذا لم ير بعيدا ، فهل ثمة دوائر لا نهائية تأخذ بعنان بعضها البعض ، او ان ثمة مطلقا ثابتا لا حراك له يغمر تلك القطاعات اللانهائية في المتغير والمتحرك طبقا للقول التوراتي الشهير : « وانت تبقى كما انت ، أليس ثمة نهاية لعمرك المديد ؟ » اننا نجهل معنى هذا القول كليا .

فحين نشبّه الذرة بالكون يكون للاعتبارات اللامتناهية تطبيقها الصحيح . والذرة لامتناهية الصغر ، اذا ما قيست بنظام قياسنا الراهن ، او هي تكاد تكون صفرا . اما اذا قيست بنظام أدنى فهي تبدو لامتناهية الكبر . ان الذرة بالنسبة لنا هي نقطة متينة ، ويجب ان نطرح جانبا مفهوم الذرة على انها جسم جامد ممتليء ، غارق في الصفر بقدر ما نتصور ، لانه ليس للممتليء الذي لا ينقسم وجود في الطبيعة . وعالمنا بالرغم من انه مركب من أجسام تركت بينها فراغات هائلة هو في الحقيقة عالم لا يخرق . ولنفترض ان هناك سهما أطلق بقوة غير متناهية الى اقصى المعمور فهو لن يخرق الكون المشتت ظاهريا ، وسيلتقي أجساما لا حصر لها قد توقفه ، وذلك شبيه برصاصة لا تتمكن من اختراق غيمة دون ان تتبلل .

وعلى هذا النحو قد يتصور المرء ذرة جسم بسيط ، ذرة ذهب مثلا ، على انها كون قد تكون مركباته المختلفة ، دون ان تشكل جسما صلبا ممتلئا ، متباعدة الواحدة عن الاخرى كسائر مراكز الانظمة الشمسية ، فقد تنتج القدرة على عدم الاختراق عن عدم تبدل داخلي في جسم معين ، وهي قدرة لم تتمكن لغاية اليوم أية وسيلة طبيعية ، او علمية ، من ان تسيء اليها . وقد يكون عدم القدرة على مهاجمة الجسم البسيط حدثا شبيها بثبات قوانين كوننا ، أو بالاحرى شبيها بغياب ارادات خاصة في حكم هذا الكون . وقد يقابل غياب كل

تدخل خارجي في نظام الاشياء التي نراها واقعا هو انه لم ينجح أي كيميائي حتى الآن في تفتيت تجمع قوة أولية لامتناهية تشكل ذرة واحدة . (من كتابات سنة ١٨٨٨) .

وليس من صحيح اذاً القول « ان الكون الذي نشاهده هو كون خالد » وليس صحيحا كذلك القول بأن « الذرة ابدية » ، فالذرة ظاهرة بدأت وستنتهي ، وكوننا ظاهرة بدأت وستنتهي . ومن لم يبدأ ابدا ولن ينتهي مطلقا هو الكل المطلق ، هو الله . فالميتافيزيقيا علم ليس له سوى خط واحد « اذا وجد شيء اليوم ، معنى ذلك انه قد وجد شيء من الازلي الكلي » . وتأكيد كهذا يماثل قولنا « ليس من مُسبّب دون سبب » وهو تأكيد له بالطبع اساس تجريبي . ولكن بين هذا الوجود الاولي والعالم الذي نراه مسافات لامتناهية . فالعالم الذي نراه وذرة الجسم البسيط قد تكوّنا ربما منذ عشرات القرون ، او لعل كوننا والذرة لم تشبهما اية شائبة منذ عشرات عشرات القرون . وبما ان التصور البشري لا يدرك الفرق بين اللانهائي واللامحدود ، وذلك كاف لما نحتاجه من تأكيدات، ثم اننا لا نميز بين احتمال مليار ضد واحد واليقين . والاستنتاج القائل : « طلعت الشمس اليوم ، ستطلع غدا » يقدم لنا يقينا تاما ، وهذا البناء العظيم من الامور التقريبية التي تشكل الحياة البشرية يجد اساسا اقوى من الحياة نفسها في هذا الواقع بحيث انه حسب علمنا لم يطرأ اي انقلاب في قوانين الطبيعة .

ولكن بما ان هذا الامر لم يحدث ابدا منذ زمن بعيد على الاقل ، فهل نحن في حرز من الاستنتاج بان ذلك لن يقع ابدا ؟ لعل العالم لعبة بين يدي كائن علوي ، وتجربة يقوم بها عالم عظيم يمتلك بين يديه أسرار الكائن . فهل ينجح كيميائي عبقري في تفكيك الذرة ذات يوم ، او يتوصل الى تفجيرها ؟ الى ان يأتي فجر اليوم الذي سيتحقق فيه هذا الاكتشاف سيقول الوعي الكامن داخل الذرة ما نقوله نحن : « ان العالم ثابت وازلي » وسيعرف الوعي خطأه حين يتم هذا الاكتشاف ، كذلك قد ينقض الكائن العلوي ذات يوم قانون ثبات كوننا ، دون ان يكون لديه اهتمام بالكائنات الموجودة فيه ، أكثر من الحركة التي تجبل كومة من الطين ليس فيها حشرات يمكنها ان نعيش فيها ايامها المعدودة . ولعل الها يكشف عن نفسه ذات يوم ، فأزلية كوننا ليست مضمونة بمجرد ان من حقنا ان نفترض كونا متناهيا وخاضعا للانهاية . فاللانهائي العلوي قد يضعه في تصرفه ، فيستعمله ، ويطبقه على غاياته وأهدافه . وقد لا تكون « الطبيعة ومكوّنها » تعبيرا عبثيا ، كما يبدو . وكل شيء ممكن الوجود حتى الله ... فلا يستحيل اذن خارج الكون المتناهي ، او اللامتناهي ، لا فرق ، ان نعرف ان هناك لا نهاية من نوع آخر لا يمثل كوننا بالنسبة لها سوى ذرة . وقد لا تكشف هذه اللانهاية التي تمثل الله بالنسبة لنا عن ذاتها الا على مراحل ، وهي مراحل نراها مفرطة في الطول ، ولا معنى لها في نطاق المطلق . وازاء وجهة النظر

هذه قد يعتبر وجود الله ذا ارادات خاصة ، لا يظهر في كوننا ، ممكنا داخل اللانهاية ، او لعل من التهور على الاقل نفي وجوده لا تأكيده .

٢ ـ ثانيا

ان الوجدانات الفردية الهائلة التي تحدّرت من كوكب الارض ، والتي كان بوسع الكواكب والشموس الاخرى توليدها ، يبدو وكأن شكلها يوجب بقاءها مغلقة في الكون الذي تنتمي اليه . ولعل احياء تلك الوجدانات معجزة كما اعتقد اللاهوتيون الذين دعموا الفكرة القائلة بأن نفس الانسان خالدة ، ليس بطبيعتها بل بارادة خاصة من الله . فلا تحدث عجائب في المحيط الذي يخضع لتجربتنا ولكن ليس هناك ما هو مستحيل في نظر اللانهائي . ومن الغريب ان يكون اليهود الذين بالرغم من انهم لا يعتقدون ابدا بنفس خالدة ، قد اسهموا اكثر من سواهم في نشر افكار الثواب المستقبلية التي تتخذ شكل ملكوت الله واليوم الآخر ، وقد كوّن اليهود لانفسهم تصورا مماثلا يعتبر ظهور العدالة الالهية وكأنه ظهور موسمي ، كما يعتبر ايقاظ الصالحين من رقادهم كاعجوبة يقوم بها الله بشكل مباشر . وهذا بالطبع أفضل من سفسطات **فيدون** . ان لا نهائية المستقبل تغرق في صعوبات جمة . فاذا كان الله موجودا

يجب ان يكون صالحا ، وسينتهي بأن يكون عادلا .. وعلى هذا النحو يصبح الانسان خالدا في اللانهاية والى اللانهاية أما المسلمتان الكبريان في الحياة الانسانية ، الله وخلود النفس ، وهما مسلمتان مجانيتان من وجهة نظر النهائي الذي نعيش فيه ، ولعلهما حقيقتان في حدود اللانهائي .

اما الزمن فهو غير موجود بالفعل الا بطريقة جد نسبية ، فنوم عشرات السنين ليس أطول من نوم ساعة واحدة ، والفردوس ليس موجودا ، وقد يصبح موجودا في غضون عشرات السنين ، واولئك الذين ستعيدهم عدالة متأخرة في الفردوس الى أماكنهم سيعتقدون انهم ماتوا من السهر ، كما جاء في اسطورة القرون الوسطى ، فهم حين يقلّبون سرير نزاعهم سيجدونه لا يزال دافئا . ومن كان موجودا في الماضي معناه انه موجود حاليا . والتعاقب هو الشرط المطلق لفكرنا ، ولكن التعاقب والتلاحق المرتب في الشيء يمتزجان ، وازاء وجهة النظر هذه هناك نيران ابتهاج ابدية . ان حفيدي الصغير الذي له من العمر خمس سنوات يتسلى كثيرا في الطبيعة بينما لا يدور في خلده غم سوى النوم . فهو يقول لامه : « ماما هل سيكون الليل طويلا اليوم ؟ » وعندما نتساءل ازاء الموت : « هل سيكون الليل طويلا ؟ » لا نكون أقل سذاجة من ذلك الصغير .

هنا يصبح السر مغلقا كليا ، فنحن نشعر شعورا واضحا بصوت عالم آخر يضج في ذواتنا ، ولكننا لا نعلم ما

هو هذا العالم . فما عساه يقول لنا صوت كهذا ؟ انه يقول اشياء في غاية الوضوح ، من أين يأتي هذا الصوت ؟ انه يجيب اجابة غامضة تماما ، وسيصل الى مسامعنا عن طريق اغراءات يصعب شرحها ، ولحظات سعادة غير محسوسة ، وتجعلنا الحان المهيصين العابرين غير المدركين، الذين يوحون بالاخلاص ، غير قادرين على القيام بالواجب. وتوحي لنا الشجاعة وتجعلنا نخضع لاجراءات الجمال . وهو صوت ينطلق خاصة في خضم تلك الاعمال العبثية السامية التي ينخرط فيها المرء مع علمه التام بأنه يخطىء الظن بأعمال الانسان الجنونية الاربعة الكبرى : الحب ، والدين ، والشعر ، والفضيلة . وهي أعمال تتسم بأنها ربانية وينكرها الفكر الانساني ، وهي تسيّر العالم رغما عن ارادته . فنحن عندما نصغي لتلك الاصوات الالهية نسمع بحق أنغام الكواكب السماوية ولحن اللانهاية يقول : « ليكمل الايمان ما قصرت عنه الحواس » .

والحب هو أول تلك الغرائز العظمى الكاشفة التي تهيمن على الخليقة بأسرها . وتبدو تلك الغرائز وكأن ارادة عليا أملتها ، وتعني روعتها ان كل الكائنات تشترك فيها ، وهي تمثل بالطبع الصلة بغايات الكون واهدافه ، ويبدو ان اول مهد اتخذته لها هو أصول الخلية ، وأعطتها بداية الازدواجية في الاجناس اتجاها لم يتغير ابدا ، فأدت الى تفتح رائع . وايمان العالم الاساسي هو في تنافر الجنسين المتحدين على مستوى معين في تناغم الهي يبزغ منه وفاق

تام في عملية الخلق . وتختصر هذه التطلعات السحرية في عالم النبات بالزهرة . والزهرة هذه القضية التي لا تدانيها قضية ، يمر طيشنا ازاءها بوهلة غبية . الزهرة هي لغة الروعة والفتنة ، وهي ذات لغز مطلق ، وتبدو تماما فصل عبادة الارض لحبيب لا تراه الاعين ، وفقا لطقس متشابه الحلقات . فصغير الزهر بالفعل ، الذي يكاد يراه الانسان ، يماثل كبيره في الكمال . فالطبيعة تضع فيه الدعة ذاتها ، وهناك كائن واحد يتجلى في الاثنين .

ويماثل الزهرة في عالم الحيوان نشوة الفرح لدى الطفل ، وجمال الغادة الغيداء ، وذلك الضياء في النهار ، ونضح الضياء الشبيه بوميض احدى الحشرات ، وهو ضياء يظهر الحيوية المحمومة في حياة تتطلع الى التألق والنضارة. والجمال كالزهرة غير شخصي ، وباطلة هي جهود المرء فيه. فالجمال يولد ويظهر لبعض الوقت ثم يذوي مثل اية ظاهرة طبيعية . والطبيعة كلها زهرة كبيرة ترفل بالتناغم ، فلا نجد فيها خطأ في الرسم — نحن الذين نضع فيها هذا التناغم — فكيف يحدث اذن بأن يفسد المرء الطبيعة في غالب الاحيان ؟ يبقى العالم جميلا حتى يمسه الانسان فلقد ظهرت النواقص ، والارتباكات ، والذوق المجوج ، والالوان المزيفة ، والفجاجات ، والقباحات والوساخات بظهور الانسان في هذا الفردوس الذي لم تداخله الآثام في القديم .

ولقد اكان الحب عند الحيوان مبدأ الجمال ، فالوان

العصفور الذكر هي أكثر زهوا ، وأشكاله أروع تخطيطا (١) لانه يقوم بجهد جهيد من اجل أن يدخل البهجة الى القلوب . وكان الحب عند الانسان مدرسة لطف وكياسة ، وأنا أضيف بأنه مدرسة دين وأخلاق . هناك ساعة يقوم فيها الكائن الاكثر لؤما بحركة حنان ، ويشعر فيها الانسان القصير النظر بشعور من الاتحاد الداخلي بالكون ، وهي بالتأكيد ساعة الهية .ولان الانسان يسمع في هذا الوقت صوت الطبيعة فهو يلتزم ازاءها بواجبات سامية ويقسم اقساما مقدسة ،ويذوق فيها أفراحا علوية ، أو يهيىء نفسه لشكوك مؤرقة، انها على كل حال ساعة في حياة الطبيعة العابرة التي يمثل الانسان افضل ما فيها . والشعور المتعاظم الذي ينتاب الانسان حين يخرج على هذا النحو من ذاته يدل بأنه يلامس اللانهاية بحق وحقيق . والحب من جهته السامية هو أمر ديني ، أو بالاحرى جزء من الدين . فهل يعتقد المرء أن اثر قرابته القديم بالطبيعة ينجح الطيش ، والبلاهة في جعله اثرا باقيا من الحيوانية ؟ فهل يعقل ان يربط مصير مقدس كقداسة استمرار النوع بعمل مسؤول ، او مثير للسخرية ؟ اننا على

---

(١) لقد قلبت الانسانية الامور رأسا على عقب . والشبيه الحقيقي لجمال الذكر هو حياء المرأة . ان شكلا صغيرا من اشكال التحفظ والحياء والخضوع المؤثر قد كف عن تمثيل أمر أكثر اغراء من الجمال بالنسبة للانسان .

هذا النحو نعطي الكائن الازلي قصدا هازئا واستغرابا حقيقيا .

لقد طمس طابع الحب الرصين بيد الخفة . لكن الواجب بالتأكيد هو أمر أسمى لانه غير مصحوب بأية لذة ، وهو غالبا ما يتطلب تضحيات قاسية . ومع هذا يتمسك الانسان به تمسكه بالحب تقريبا ،و يكون عارفا بالجميل حين يلمس الاخلاص لمس اليقين ، وحين يثبت له الواجب معنى ذلك نعيد اليه ألقابه النبيلة ، ولعل تدخلنا ليس في محله أن نحن عرضنا عليه ان نخلصه منه . واهتمام الحيوان بنسله ، الى جانب مجموعة من الوقائع ، يعرض لنا الحاجة الى التضحية في الوجدانات الظاهرة الاكثر أنانية ، يظهر ان قلة من الكائنات تستثنى من الاوامر التي تضعها الطبيعة من أجل اهداف لا تعيرها تلك الكائنات نفسها أهمية تذكر . ان الواجب والغرائز التي تدفع بالعصفور الى بنيان عشه ، وحضانة فراخه ، هي من أصل الهي واحد . وحتى في الحياة المفرقة بالطابع العامي نرى النزر اليسير الذي نقوم به من أجل الله عظيما . ويفضل الكائن الاكثر انحطاطا ان يكون صالحا على ان يكون غير صالح . فنحن جميعا نمارس فعل العبادة والصلاة مرات عديدة في اليوم دون أن ندري .

ولكن من أين تأتي هذه الاصوات الناعمة تارة ، والزاهدة طورا ؟ انها تأتي من الكون ، او بالاحرى من الله . والكون الذي نحن في علاقة معه ، كما هي الحال بالنسبة

لحبل السرة ، يضع نصب عينيه الاخلاص ، والواجب ، والفضيلة ، ويستخدم الدين ، والشعر ، والحب ، واللذة وكل مخيبات الامل للوصول الى هدفه . ويفرض الكون دوما ما يريد لان لديه لدعم ارادته حيلا لم يسمع بها احد. ولا تقف أفكار النقاد المنطقية البديهية تماما في طريق ازالة تلك الاوهام المقدسة . والنساء خاصة يقاومن باستمرار . فلنقل ما نريد ، انهن لا يصدقننا ، ونحن بهن مفتونون . وما هو قائم في نفوسنا دون ارادتنا ، ورغما عنا ، هو اللاوعي ، وهو بكلمة مختصرة الانكشاف الامثل . والدين الذي يمثل صوت الكون هو مختصر حاجات اخلاقية لدى الانسان هي : الفضيلة ، والحياء ، والتجرد ، والاخلاص ، وكل شيء يختصر بفعل ايمان بغرائز تزعجنا بالحاح دون ان تقنعنا ، وبطاعة للغة آتية من اللانهاية ، لغة تامة الوضوح من حيث ما تأمر به ، وغامضة بما تعد به . اننا نرى السحر فنبتهج به ، ولكنه لا يبهت ابدا من جراء ذلك الابتهاج ، فسبحان من وضع الحكمة في عقل الانسان .

ولا يمكننا نعت هذه المجموعة من القوى العليا فيالكون الا بنعت واحد هو انها صالحة ، لانها لو لم تكن كذلك لزال الكون الموجود منذ الازل بكامله . ولنفرض ان مؤسسة مصرفية وجدت منذ الازل ، فلو كان في أساساتها ضعف لكانت تعرضت للافلاس آلاف المرات . ولو كانت حصيلة العالم غير مضمونة الربح ابدا لصالح المساهمين ، لكان الكون لقد اندثر منذ زمن بعيد . وينتج عن التوازن الهائل الواسع

بين الخير والشر فائدة وذخيرة ملائمة . فهذا الفائض في الخير هو سبب وجود الكون وسبب بقائه . ولم الوجود اذا كان مديم الفائدة ؟ لقد كان من السهل جدا الا يكون ابدا .

انني اجد الاعتراضات التي يسجلها بعض العلماء على المذهب الغائي سطحية ، فعند ملاحظة بعض النواقص في الطبيعة ، كعيوب الجسم البشري ، مثلا : نرى ان هناك عضلا معينا يشكل رافعة من النوع الاقل فعالية ، وان تكوين العين خاضع لقدر كبير من التقريب . ولكن المرء ينسى بان ظروف الخلق ، اذا صح التعبير ، يجدها توازن الحسنات والسيئات المتناقضة . فالخلق منحنى محدود بتلاقي احداثياته ، ومكتوب سلفا في معادلة مجردة ، وأفضل رافعة ذات ذراع تنطبق علينا كانطباقها على البجع ، ولعل عينا تتجنب عيوب العين الحالية تقع في سيئات أشد خطرا . وقد يقدّر لادمغة اشد ذكاء من افضل الادمغة البشرية ان توجد ذات يوم ، ولكنها قد تجلب لمن ابتلوا بها احتقانا وحميات في الدماغ ، ولعل انسانا غير مريض البتة قد يكون، على عكس ما نرى ، مصابا بنقص في الذكاء لا شفاء منه . ولعل انسانية غير ثورية تعصف بها عوالم طوباوية تشبه جمعا من الناس ، أو « صينا » اعتقدت انها وجدت الشكل الامثل وابقت عليه . فالانسانية التي لا تؤمن بالخرافات قد تكون ذات مبدأ ايجابي مخيب للآمال ، لكن للطبيعة تبصر معين ، فهي لا تخلق شيئا يذوي من جراء فساد داخلي . انهاتكشف المآزق ولا تتورط فيها .

وتماثل بعض سيئات الجسم اعمال تعسف في التاريخ لم ير التقدم فائدة تستحق السهر على اصلاحها . فحين كان الخطأ فادحا وخشي ان يقتل الفرد ويقضي على النوع البشري، حدث صراع قاتل، وكان ان صحح الفساد المميت، او انقرض النوع ، ولكن حين كان الفساد ناتجا عن الطبيعة (كاطالة لا فائدة لها لفترة العمى، مثلا) ، كانت تحدث بعض الامراض ، وبعض الوفيات ، ولم تحكم الطبيعة بان هناك ما يحرز للقيام بانقلاب من أجل مغنم بسيط . وهكذا ، فاستئصال التعسف من المجتمع هو امر اسهل من اصلاح الاطفال، لان المسألة في الحالة الاولى هي مسألة حياة أو موت، اما الثانية فهي مسألة عدم وجود شخص له مصلحة كافية في الاصلاح لكي يقوم بصراع جذري . واعتراضات العلماء الذين يقفون ضد ما يرونه بعثا للمذهب الغائي تحمل بعمق على نظام أوجده خالق ومفكر قدير . وتلك الاعتراضات لا تسيء بشيء الى طرحنا القائل بوجود جهد عميق يمارس دوره بطريقة عمياء في عمق أعماق الكائن ، دافعا بكل شيء لان يعيش في كل نقطة في المكان ، وهذا الجهد ليس واعيا ولا قديرا . انه يمسك بأفضل جانب من جوانب المادة التي يتصرف بها ، فمن الطبيعي جدا اذاً ان يكون غير مصنوع من اشياء تظهر فيها كمالات متناقصة . ومن الطبيعي ايضا ان يشكل القسم الذي نشاهده من الكون قيودا وثغرات تتعلق بعدم كفاية المواد التي تتصرف بها عملية الانتاج في الطبيعة حول نقطة معينة . وهو جهد يؤثر على كون قد يصبح ذات

يوم واعيا وكلي العلم والقدرة فيمكن ان تتحقق عندئذ درجة من الوعي ليس بوسع اي شيء الآن ان يقدم لنا فكرة واضحة عنها .

وفي القرون الوسطى كان أسمى ما توصل اليها العالم، على الاقل في كوكب الارض ، جوقة من رجال الدين ينشدون المزامير . وعلم اليوم الذي يلبي رغبة العالم في التعرف الى ذاته ، يطال امورا أسمى من السابق . فالكوليج دو فرانس هو اليوم أعظم بكثير من أكمل دير من أديار رهبانية « السيتو » . وسيشهد المستقبل بلا ريب نتائج أروع ايضا. وفي اللانهاية لعل الكائن المطلق الذي وصل الى أوج تطوره الالهي ، والذي يعرف ذاته تمام المعرفة سيحقق هذه الابيات الجميلة لاحد المتصوفين المسيحيين :

وفي الاعماق يساكنه

ويرى غبطته برؤيته .

٣ ـ ثالثا

ان العقيدتين الرئيسيتين في الدين : الله والخلود ، لا تزالان تستعصيان على البرهنة بطريقة عقلانية . ولكن ليس بوسع القول بأنهما مغلقتان اغلاقا مطلقا ، ويجدر بنا الا نعتبر الاعمال الدؤوبة لفهمهما اعمالا من نسج الخيال .

فوجدان الكون العام ، ونفس العالم هما امران لم يتوصل التجريب الى برهنتهما ، لكن جزيئا واحدا من أحد عظامنا لا يخامره أدنى شك بالوجدان العام للجسم الذي يشكل جزءا منه ، وبما يشكل وحدتنا .

فالموقف الاكثر منطقية الذي يقفه المفكر امام الدين هو ان يتصرف كما لو كان ذلك الدين حقيقيا . ويجدر بنا ان نتصرف كما لو ان الله والنفس موجودان . ويدخل الدين على هذا النحو في عداد تلك الافكار العديدة المطروحة ،ويمثل بالاثير ، والسوائل الكهربائية ، والضوئية ، والحرارية ، والعصبية ، وبالذرة بالذات التي ندرك تماما انها ليست سوى رموز ووسائل مناسبة لشرح الظواهر ، وهو كذلك فكرة نتمسك بها . والقول بان الله خلق العالم بموجب حسابات عميقة مقالة فظة للغاية ، لكن سير الامور يجري تقريبا كما لو ان تلك الحسابات كانت موضوعة وضعا . فليست النفس موجودة كمادة لوحدها ، لكن الامور تجري تقريبا كما لو انها كانت موجودة . ولم ينكشف شيء البتة لاية عائلة بشرية عن طريق أصوات ما فوق طبيعية ، ومع هذا فالانكشاف هو استعارة يجهد التاريخ الديني للاستغناء عنها . وليس للفردوس الازلي الموعود أي وجود حقيقي ، ومع هذا يجب التصرف كما لو كان هناك فردوس فعلي . فعلى اولئك الذين لا يعتقدون بوجوده ان يتقدموا بطيبة قلب ، أو بتضحية ، اولئك الذين يعتقدون به .

لقد اعتاد الناس ان يعرضوا هاتين العقيدتين الكبريين المعزيتين : الله والخلود كمسلمتين في حياة البشر الاخلاقية ، وهم بالطبع على حق في العديد من الجوانب . العمل من أجل الله ، والعمل بحضور الله هما مفهومان ضروريان للحيـــاة التقنية . اننا لا نطلب مثيبا ولكننا نريد شاهدا . لقد كانت مكافأة محاربي « رايسكوفن » في الابدية عبارة عن قـــول الامبراطور الهرم : « يا للرجال الشجعان ! » نحن كذلك نريد كلاما من الله شبيها بهذا القول . فالتضحية المغفلـة ، والفضيلة المجهولة ، وأخطاء العدالة البشرية التي لا يمكن تجنبها ، ووشايات التاريخ التي يتعذر دحضها تقر شرعا ، أو بالاحرى تؤدي بشكل حتمي الى استغاثة الضمير المضطهد بضمير الكون ، وهو واجب لا يتخلى عنه الانسان الفاضل ابدا . وفي المواقف البطولية أثناء الثـــورة أعلنت ضرورة خلود النفس من قبل كل الاحزاب تقريبا . وفي هذا العصر اهتمت مذكرات الناس وأوراقهم الثبوتية كذلك بالمبـــدا نفسه . لقد كتبوا وكتبوا مقتنعين بأنه لعل أحدا من الناس يقرأ ما يكتبون . لقد فتشوا بأية وسيلة عن قاض ما وراء القبر وسألوا عنه ضمير العالم ، او ضمير الانسانية . وهكذا وجدت البشرية نفسها محشورة في هذا المأزق الشاذ ، فبقدر ما تفكر ، بقدر ما تنجلي لها أيضا المصاعب التي تنتصب بوجه العقائد التي تؤكد ضرورة وجودها .

وهذه المصاعب هي اخطر المصاعب التي يمكن تصورها ، وعلينا الا نخفيها . لقد بنيت الافكار الدينية القديمة علـــى

مفهوم ضيق لعالم خلق منذ آلاف السنين وكان محوره الارض والانسان ، ان ارضا صغيرة تضم عددا من السكان ، وسماء تعلوها كالقبة ، وفناء سماويا على بضع فراسخ في الهواء مفعما تماما بولدنات الناس ، وجزرا للابرار تقع الى جهة الغرب يصل اليها الاموات بزورق ، او بالاحرى فردوسا من الورق يسقط لدى أقل نظرة علمية ، هذا هو العالم الذي يختبىء في طيات ردائه اله ذو لحية بيضاء . وحين كان نمرود يقذف سهامه بوجه السماء لتعود اليه مدماة كنا كثيرا ما نرمي دون أن ترجع السهام الينا أبدا . ويمثل التوسع في فكرة العالم ، وهدم فرضية مذهب مركزية الانسان القديمة في القرن السادس عشر ، الفترة الرئيسية في تاريخ الفكر البشري . اما صاحب تلك الخطوط الفكرية الاولى بهذا الصدد فهو اريستاك دوساموس الذي مات منبوذا . كذلك فان غضب الكنيسة على مؤسسي النظام الجديد : كوبرنيكوس ، جيوردانو برونو ، وغاليليه اودى بهؤلاء الى سوء المصير . وقد زال العالم الصغير الذي سادت فيه الكنيسة بعقائدها المقيدة بالارض الى غير رجعة . اما اكثر النظرات حداثة حول اعمار الطبيعة وثورات الكرة ، فهي نظرات تفتح امام الانسان آفاق لا نهاية الزمان لجهة الماضي ، ولها المصير نفسه بطريقة هي اكثر دلالة .

لن نعيد بناء الاحلام القديمة . فلو كانت سنة الحياة تعصبا ضيقا ، ولو كان الخطأ شرطا لاخلاقية الانسانية لكنا عدمنا اية حجة في الاستفادة من كرة حكم عليها بالجهل . آننا

نحب البشرية لانها تقدم لنا العلم ، ونتمسك بالاخلاق لاننا نرى في الاعراق الشريفة فقط أعراقا علمية . فلو وضع الجهل كحد لا مفر منه للانسانية ، لكننا نجد أي سبب للتمسك به . ولعل البشرية التي يناديها ثوارنا بأمانيهم تافهة لا معنى لها ، بحيث انني ارغب في أن أراها تفنى في الفوضى والرذيلة من ان أراها تفنى في البلاهة . ولعل عودة البشرية الى اخطائها القديمة التي تعتبرها ضرورية لاخلاقيتها ستكون أسوأ بكثير من تجريدها من اخلاقها تجريدا كاملا .

يجب ان نأخذ اذن جانب الاخلاق ، وان نتجنب في نظرتنا الى الكون سخرية قليلي الكياسة الذين لا يرون شيئا وراء قبة جرس كنيستهم ، ويتصورون ان كل الناس يهتمون بأمورهم ، وان ليس للملك هم سوى مدينتهم الصغيرة ، وان لله رأيا في التكتلات الصغيرة التي تتقاسمها وتمثل البشرية في العالم ما تمثله خلية من النمل في غابة . أما أن تكون البشرية مظلمة لعدم وجود النور أو الفضيلة ، ومتخلفة عما دعيت للقيام به من واجبات ، فتلك امور حدثت آلاف المرات في تاريخ الكون . فلنحذر اذاً من الاعتقاد بان مسلماتنا هي مقياس الواقع . فالبشرية ليست مجبرة لان تنصاع لرغائبنا الصغيرة . واذا ما صرح الانسان قائلا : « لا يمكنني ان اكون ذا فضيلة بدون هذا التصور الخيالي ، أو ذاك » يكون من حق الكائن الازلي ان يجيب « مالي ولك ، أن تصوراتك الخيالية لن تحملني على ان أغير ناموس القدر » .

وما يضعف التحليلات الاولية القبلية حول هذه النقطة هو انه من بين المسلمات البشرية هناك بعض منها في عداد المستحيل . ويجب ان نلاحظ ذلك بالفعل . فالله ، الذي يسلم به اكبر عدد من النـــاس ، ليس هو ذاتـــه القابـــع في اللانهاية والذي نسلم بامكانية وجوده . وهذا الاله أبعـــد من ان تدخل الى قلبه الرحمة ، وما يريده العامي بالطبع هـــو اله لا وجود له ، اله يهتم بالمطر والصحو ، بالحرب والسلم ، بالحسد المتفشي بين الناس ، اله نبدّل رايـــه بلجاجتنـــا ؛ وبتعبير آخر ان الانسانية تريد الها لها ، الها يهتم بخلافاتها ، الها خاصا من هذا الكوكب يسوسه سوس حاكم صالح ، كالآلهة الخرقاء التي تحلم بها الوثنية المتأخرة . وكل أمـــة تزايد على غيرها في هذا الصدد هي امة تريد الها لها دون غيرها ، ولعل الصنم هو خير ما يناسبها ، ونحن لو تركنا النـــاس يتصرفون على هواهم لطالبـــوا بسلطات للذخائـــر الوطنية ، والصور المقدسة (١) . فكم من مسلمات لا يلتفت اليها ابدا . وهكذا يحتاج المرء لاله يكون على اتصال بكوكبه ، وعصره وبلاده ، فهل ينتج عن ذلك بان الله غير موجود ؟ وبتعبير آخر قد يستولي اليأس على الانسان لانه يشغـــل حيزا من عالم لا نهائي يعد فيه صفرا ، فالفردوس المكوّن

---

(١) لهذا نرى تعبد العامي يذهب مذهبا بعيدا ناحية القديسين أكثر مما يذهب نحو الله . . ولهذا لن يكون التدين ابدا دين الشعب ، فـــلا يعبد المتدين والعامي في الواقع الها مماثلا .

من ملايين الكائنات ليس ابدا ذلك الفردوس العائلي الصغير الذي يتعرف المرء فيه على ذاتــه ويتابع فيــه التخالط ، والثرثرة ، والعمل مع ذويه في آن معا . ويجب ان نطلب من الله كي يصغر العالم ، ويخطّيء كوبرنيكوس لانه اوصلنا الى كون كامبو سانتو في مدينة « بيزا » ، وهو كون محاط بست جوقات من الملائكة ويأخذه المسيح بين ذراعيه .

وهكذا يصل المرء الى هذه النتيجة الغريبة بان الخلود هو ، **قبليــا** ، الاكثر ضرورة بين العقائد ، **وبعديا** ، الاكثــر ضعفا . ونحن كالنملة ، او النحلة نقوم غريزيا بأعمـــال مشتركة لا نرى لها مغــزى . فلو كان النحــل يقرأ مقالات يستدل منها ان الانسان يشتار له عسله ، وانه يقتله مكافأة له على أتعابه ، لكفّ عن العمل . ان الانسان يسير دائمــا برغم المثل القائل : انت لست لامر نفسك . ونحن لا نرى ما هو فوقنا وما هو تحتنا . « اننا نشكل حلقة » كما يقول احد العباقرة . والارادات الالهية هي ارادات مغلقة . ونحن كواحد من ملايين الفلاحين الذين كانوا يعملــون في بنـــاء الاهرام ، والذين كانت الاهرام حصيلة جهودهم . والأهرام رائعة مغفلة من اسماء بناتها ، لكنها رائعة قويت على الدهر . فكل عامل يحيا بحياة ذلك العمل . ولعل ما هو غير عادل في الحقيقة هو ما يطلبه العمال من المشاغل اليدوية ، وما نطالبه من ربط لاسمائنا بعمل الكون كمشاركين في المغانم ، وان نلم على الاقل بطرف عن نتيجة عملنا . ولكننا اذا قبلنا في نطاق الجهود ، فلسنا نقبل في نطاق الارباح . ولا نعلم اذا كان هناك

من ارباح ، حتى ان أجرنا لا يدفع لنا على خير وجه لعل هناك من يضربون ، اما نحن فاننا سنذهب مع ذلك .

ومختصر القول لعل وجود وجدان علوي في الكون هو اكثر احتمالا من وجود خلود فردي . وحول هذه النقطة الاخيرة ليس لنا اساس آخر يقوي آمالنا سوى الغرور الصلف لصلاح الكائن العلوي ، فكل شيء سيكون ممكنا لديه ذات يوم . ولنأمل بأنه يود ان يكون عادلا يومئذ ، وان الشعور والحياة سيعيدهما الى القلوب اولئك الذين يكونون قد ساهموا في انتصار الخير ، وستكون تلك معجزة . ولكن المعجزة ، اي تدخل كائن علوي ، ليس لها الآن وجود يمكنه ذات يوم ، أي يوم يصبح الله واعيا ، ان يكون السنة المادية للكون . ولا تزال الاحلام اليهودية ــ المسيحية التي تضع حدا لملكة الله تحتفظ هنا بحقيقتها العظيمة . والكون الذي يحكمه حاليا وجدان أعمى ، او عاجز ، قد يحكمه ذات يوم وجدان آخر أكثر تعقلا . وسترفع كل ظلامة آنذاك وتجفف كل دمعة: « ويكفكف الله كل دمعة في المآقي».

وتبدو لي الصدفة ذات الدرّ أفضل صورة عن الكون وعن درجة الوعي التي يجب افتراضها في المجموع . هناك بزور غامضة في قعر اللجة تخالق وعيا تسيء الاعضاء استخدامه اغرب اساءة ، الا انه مع ذلك عجيب اللباقة في الوصول الى غاياته . وما ندعوه مرضا ينتاب هذا الكون الصغير الحي يؤدي الى افراز جمال مثالي ينتزعه الرجال

بقوة الذهب . والحياة العامة للكون شبيهة بحياة الصدفة ، غامضة مظلمة وفريدة في تخبطها ، وهي بالتالي بطيئة . والالم يخلق الفكر والحركة الذهنية والاخلاقية ، ولعل مرض العالم هو في الواقع جوهرة العالم والفكر هو الهدف والسبب الغائي ، والنتيجة الاخيرة والاشد تألقا بالتأكيد في هذا الكون الذي نسكنه ، ويحتمل ان كانت هناك نتائج سابقة أن تكون من نوع أرفع بكثير .

ما يمكن أن يعرفه المفكرون الأحرار عن المسيحية وما يجدر بهم أن يعرفوه

« عظيم ورائع هو الكون ، وبالرغم من كل الظلمات التي تحيط به فنحن نراه ثمرة ميل داخلي نحو الخير ، وثمرة صلاح علوي . والمسيحية هي ابرز تلك الجهود التي تدرجت في التاريخ من اجل خلق مثال من النور والعدالة . وبالرغم من ان الانطلاقة الاولى كانت انطلاقة يهودية فقد أضحت المسيحية مع الوقت رائعة الانسانية المشتركة . فلكل عرق في هذه الرائعة موهبته الخاصة التي حظي بها ، لا بل أفضل ما في تلك الموهبة . والله لا يتجلى في تلك الرائعة فحسب ، ولكنه يتجلى فيها أكثر من تجليه في أي تطور ديني وأخلاقي . والمسيحية هي في واقع الامر ديانة الشعوب المتمدنة ، ولكل أمة مذاهب شتى في تبنيها لهذه الديانة تعود الى درجة

ثقافتها الفكرية . وللمفكر الحر عذره في الاستغناء كليا من هذه الديانة . ولكن هذا المفكر الحر يشكل حالة فردية رفيعة القدر ، لكن موقعه الفكري والاخلاقي ليس موقفا قوميا او انسانيا .

« لنحافظ على المسيحية اذن باعجاب نظرا لقيمتها الاخلاقية الرفيعة ، وتاريخها المشرق ، وروعة اسفارها المقدسة . وتلك الاسفار هي بالطبع كتب يجب ان نطبق عليها قواعد العرض والنقد التي تطبق على سائر الكتب . وتشكل كتب الديانة المسيحية الوثائق الدينية للانسانية ، حتى ان ما تضمه من أجزاء هزيلة جدير بالاحترام ، ولنحترم العقائد أيضا ، دون أن نجعل من أنفسنا عبيدا لها ، وكذلك تلك الصيغ التي قدّست الحكمة في ظلها أربعة عشر جيلا ، دون ان نسلم بمعجزة خاصة ، ولا بالهام محدود ، ولننحن امام المعجزة العلوية لتلك الكنيسة الكبيرة ، ذلك المنبع الدائم لظواهر تتغير باستمرار . اما في مجال العبادة فلنسع لنحذف منها التفاهات المنفرة ، ولنعتبرها في أي حال شيئا ثانويا لا قيمة له الا بما نغدق عليه من شعور » .

« ان مبدعي المسيحية يتصدرون بحق المقام الاول في تقدير الانسانية . لقد كانوا أدنى منا بكثير في معرفة الواقع،

ولكن لم يجارهم احد في الاقنــاع والاخلاص ، وذلــك ما يبرر عظمتهم ، فصلابة بناء معين هي في أساس جملـــة فضائل تعبر عن التضحيات « التي نضعها في اساسه » .

اصول المسيحية : مارك ــ أوريل

الفصل الرابع والثلاثون

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثـا

في سلسلة اعلام الفكر العالمي

- رينــان
- برنارد شو
- غرامشي
- توماس مــان
- اوغست كونت
- شتاينبك
- اوسكار وايلد
- اناتول فرانس
- رامبــو

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

الثمن :

أو ما يعادلها